يوميات نائب فى الأرياف

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

يوميات نائب في الأرياف

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ــ محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
٢ ــ عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
٣ ــ أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
٤ ــ شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
٥ ــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية) ١٩٣٧
٦ ــ عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
٧ ــ تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
٨ ــ أشعب (رواية) ١٩٣٨
٩ ــ عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
١٠ ــ حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
١١ ــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
١٢ ــ راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
١٣ ــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
١٤ ــ حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
١٥ ــ سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
١٦ ــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
١٧ ــ تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
١٨ ــ بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
١٩ ــ سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
٢٠ ــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ــ رسائل) ١٩٤٣
٢١ ــ الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر(نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينتجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ــ ترجمة أبا إيبان ــ ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ بالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . بالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستي بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

لماذا أدون حياتى فى يوميات ؟ ألأنها حياة هنيئة ؟ كلا ! إن صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها ، إنما يحياها . إنى أعيش مع الجريمة فى أصفاد واحدة . إنها رفيقى وزوجى أطالع وجهها فى كل يوم ، ولا أستطيع أن أحادثها على انفراد . هنا فى هذه اليوميات أملك الكلام عنها ، وعن نفسى ، وعن الكائنات جميعاً . أيتها الصفحات التى لن تنشر ! ما أنت إلا نافذة مفتوحة أطلق منها حريتى فى ساعات الضيق ! ..

١١ أكتوبر سنة ...

آويت إلى فراشي البارحة مبكراً ؛ فلقد شعرت بالتهاب الحلق ، وهو مرض يزورني الآن من حين إلى حين . فعصبت على رقبتي خرقة من الصوف ، وعمرت بقطع من الجبن العتيق مصايد الفيران الثلاث ، ونصبتها حول سريري كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر ، وأطفأت مصباح النفط ، وأغمضت عيني وأنا أسأل الله أن ينيم الغرائز البشرية فى هذا « المركز » بضع ساعات ، فلا تحدث جناية تستوجب قيامي ليلاً وأنا على هذه الحال . فلم أكد أضع رأسي على المخدة حتى كنت حجراً ملقى ، إلى أن حركني صوت الخفير يضرب الباب ضرباً شديداً ، وينادى خادمي صائحاً : « اصحِ يا دسوقى ! » ، فعلمت أن جناية وقعت ، وأن الغرائز لم تنم لأني أردت أنا أن أنام . فنهضت لوقتي وأشعلت المصباح ،ودخل عليَّ خادمي يفرك عينيه بيد ، ويقدم إليَّ بالأخرى (إشارة تليفونية) فأدنيت الورقة من الضوء وقرأت : « الليلة ؛ الساعة ٨ مساء ، بينما كان المدعو قمر الدولة علوان ماشياً على الجسر بالقرب من « دايرِ » الناحية أطلق عليه عيار نارى من راعة قصب والفاعل مجهول ، وبسؤال المصاب لم يعط منطقاً وحالته يئة ، لزم الإخطار » . « العمدة » .

فقلت فى نفسي : لا بأس ، تلك حادثة بسيطة تستغرق مني على كثر ساعتين ؛ فالضارب مجهول ، والمضروب لا يتكلم ولا يثرثر ، الشهود ولا ريب : الخفير النظامي الذى سمع صوت العيار فذهب إليه

خائفاً متباطئاً ؛ فلم يجد بالطبع أحدا بانتظاره غير الجثة الطريحة ، والعمدة الذى سيزعم لى حالفاً بالطلاق أن الجانى ليس من أهل الناحية ، ثم أهل المجنى عليه الذين سيكتمون عنى كل شيء ليثأروا لأنفسهم بأيديهم . فسألت خادمى عن الساعة وكتبت فى ذيل الورقة : « وردت الساعة العاشرة ، وقائمون لضبط الواقعة » وقمت من فورى إلى ثيابى فارتديتها على عجل ، كما يصنع رجال المطافئ ، وأرسلت فى طلب كاتب التحقيق وسيارة النيابة ، وأوفدت من يوقظ مساعدى الجديد وهو شاب رقيق الحاشية ، حديث عهد بالعمل ، كان قد أوصانى أن أستصحبه فى الوقائع ليكتسب الخبرة والمران . ولم ألبث أن سمعت ببابى بوق سيارة المركز « البوكس فورد » بها المأمور ، ومعاون الإدارة ، وبعض الجنود . فنزلت إليهم فوجدت كل شيء قد أعد ولا ينقصنا إلا كاتب التحقيق ، فلم أعجب . لأنى ما أبطأت يوماً فى القيام إلى واقعة إلا كان السبب كاتب التحقيق ، فى أى بلد كان ، وفى أى مركز . والتفت إلى الخفير وقلت .. أنت متأكد أنك ناديت سعيد أفندى ؟ فسمعت فى الظلام صوت الحذاء الضخم يضرب الأرض ، ولمحت يداً ترتفع بالتحية فوق (اللبدة) الطويلة ذات الرقعة النحاسية ، وفماً يتحرك تحت شارب أسود كبير كأنه ذنب القط : « لبس القميص قدامى باسعادة البك ! » . ورأينا أن ننطلق بسياراتنا لنمر بمنزل الكاتب فنستصحبه . فركبت أنا ومساعدى والمأمور سيارة النيابة حتى بلغنا منزلا قديماً فى طرف البلدة . فصاح الخفير وكان قد تعلق بسلم السيارة ليدلنا على الطريق .. « انزل يا سعيد أفندى . » فأطل الكاتب من نافذة قصية وهو فى جلباب النوم « حادثة ؟ » فصاح الخفير . « حادثة ضرب نار » ، وما أشعر عندئذ إلا

بيد المأمور قد خرجت من نافذة السيارة ونزلت على قفا الخفير . « يا خفير يا ابن .. لبس القميص قدامك يا ابن ال .. » . «وحياة رأس سعادة البك كان لابسه ..» . و لم أر ضرورة للتحقيق فى هذه المسألة ، فالأمر لا يخرج عن اثنتين : إما أن الخفير لا يعرف القميص من اللباس وهو شىء غير مستغرب ، وإما أن سعيد أفندى قد عاد فخلع قميصه ونام من جديد ،وهو شىء أيضاً غير مستغرب . وما دمت أنا وحدى المسئول رسميا عن التأخير ، فلا نفع إذن من صياحى مع سعيد أفندى غير تصديع رأسى ، وأنا أحوج الناس إلى الراحة الليلة ، وإلى توفير الجهد والكلام للقضية الحقيقية التى من أجلها نتجشم . و لم يلبث الفتور أن دب فى أعضائى ؛ فأسندت رأسى إلى ركن السيارة وقلت لمن معى : « محل الحادث على بعد ثلاثين كيلومتراً ، فلا بأس من أن أنعس مسافة الطريق » وأغمضت عينى ، وتحركت سيارتنا وخلفها « البوكس فورد » وبه الكاتب والمعاون والباشجاويش والعساكر — وما كدنا نخرج إلى الطريق الزراعية حتى سمعنا صوت غناء فى جوف الليل ، فأخرج المأمور رأسه من النافذة فى الحال وصاح : يا حضرة المعاون ! نسينا الشيخ عصفور . ووقفت القافلة ؛ وإذا الصوت يخرج واضحاً من دغل « بوص » على حافة غيط :

"... ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان ..."

فأسرع المعاون منادياً : « اطلع يا شيخ عصفور . حادثة ! » فظهر ذلك الرجل العجيب الذى يهيم على وجهه بالليل والنهار ، لا يعرف النوم ، يغنى عين الأغنية ، ويلفظ كلمات ، ويلقى بتنبؤات . يصغى إليها الناس ؛ ذلك الرجل الذى لا يفرحه شىء مثل خروجه إلى الحوادث مع النيابة والبوليس ؛ فهو يسمع عن بعد بوق « البوكس فورد » ، ويتبعه أينما ذهب

كالكلب الذى يتبع سيده إلى الصيد . لماذا كل هذا ؟ طالما سألت نفسى ألا يكون لهذا الرجل سر . ودنا الرجل من « البوكس » قائلا فى شبه احتجاج .

ــ كنتم طالعين من غيرى ... ؟

فأجابه الباشجاويش باسماً :

ــ أبداً ! لو كنا نعرف عنوانك لبلغناك الإشارة !

فقال الرجل :

ــ طيب . هات سيجارة !

فغمزه الباشجاويش سريعاً وقال له فى صوت خافض

ــ اسكت ، يسمعك البك المأمور .

فقال الشيخ عصفور :

ــ هات سيجارة يا حضرة الباشجاويش ، لأنى أنا الليلة « باشخرمان » !

وصعد الرجل إلى « البوكس فورد » كأنه يصعد إلى « رولز رويس » بعد أن انتزع من الدغل عوداً أخضر حمله فى يده كالصولجان . وانطلقت السيارتان بين المزارع وقد نامت الطبيعة وسكنت الأصوات إلا من نقيق الضفادع ، وهفيف الحشرات ، وتغريد الشيخ عصفور المتصاعد من جوف « البوكس » . وقد أغفيت أنا أيضاً إغفاءتى التى اعتدتها كلما ركبت إلى واقعة ، إغفاءة متقطعة لا تمنعنى أحياناً من سماع ما يدور حولى من الكلام . وكان مساعدى إلى يسارى متيقظا يبدو عليه العجب ويريد أن يسأل عن كل شيء فيمنعه الخوف من إزعاجى . فالتفت إلى المأمور بجواره ؛ وسرعان ما اشتبكا فى حديث طويل لم أع منه شيئا . فهو الذى

أنامنى النوم العميق طول الطريق ، وانتبهت على وقوف السيارة بعد زمن ليس بالقصير ، ففتحت عينى فإذا نحن أمام ترعة .. وإذا (المعدية) فى انتظارنا لتنقلنا إلى الضفة الأخرى .

فنزلنا جميعاً وامتلأ بنا القارب كأننا غرق فى زورق النجاة أو « أزيار » من الفخار فى مركب بالصعيد . وسارت بنا « المعدية » حتى بلغت الشاطئ الآخر ونحن لا نسمع فى سكوت الليل العميق غير سلاسلها تضرب الماء ، ولا نرى من حلك الظلام شيئاً . و لم تكد تطأ أقدامنا البر حتى سمعنا صهيل خيل ؛ وإذا أمامنا « الركايب من خيول « نقطة البوليس » وحمير العمدة ، مهيأة لحملنا إلى مكان الحادث . وآه من الخيول ! لقد تقدم إلىّ أحد الجنود بجواد مطهم إجلالا لقدرى . ورأيت هذا الحصان يتبختر ويفحص الأرض بحوافره ، ولا يصبر على الهدوء حتى اعتلى ظهره ، فعلمت أنى لا محالة واقع على الأرض . ولطالما كدت أقع من فوق تلك الظهور اللاعبة التى لا يحكمها غير فارس بارع لا راكب نائم . ولطالما فضلت عليها الحمير الهادئة غير أنى نظرت خلفى فإذا أكابر القافلة قد امتطوا الخيول و لم تبق الحمير إلا للأوباش ؛ فخجلت أن أنزل عن جوادى وأن أحاذى فى المرتبة الشيخ عصفور ، وقد اعتلى حماراً أشهب وخزه بصولجانه الأخضر فانطلق به فى ذيل الجياد . أسلمت أمرى لله ، وسرت فى المقدمة قائداً مترنحاً من الخوف والتعب إلى أن ظفر النوم بجفونى فلم أشعر بشىء . وفجأة وجدت جسمى قد طار من فوق الجواد ووقع على عنقه ! فقد قفز الحصان فى قناة ماء قفزة شديدة خلعنى من فوق ظهره خلعا . فقلت . « ما حسبناه لقيناه ! » وصحت بالخفير الملحق بركابى . « الحصان يا خفير ! الحصان ! » فوقف الركب واختل

النظام ؛ وأوسع المأمور رجاله شتما وصفعاً ، وأمرا و نهياً وأعادونى إلى ظهر جوادى وأنا أقول لأدارى خجلى : يظهر الحصان نام وهو ماش ، أو خاف من ثعلب فارّ فجمح . على كل حال أمسك اللجام يا خفير . فأمسك خفيران اللجام ومشيابى رويداً رويداً مشية هادئة متزنة أعادت إلى نفسى هجوعها فلم أصح إلا فى مكان الواقعة .. وأبصرت ضوء المصابيح والمشاعل فى أيدى الأهالى المجتمعين حول المصاب ، فطار التعب من رأسى كما تطير البوم من وكرها على الضوء المقترب . وأسرعت فى النزول من فوق صهوة الجواد وشققت طريقاً بين الناس الذين هتفوا فى صوت خافت « النيابة حضرت » . ودنوت من ذلك الجسم الممدد على الأرض ، وحدقت فى ذلك الوجه المعفر بالتراب والدم ، فعلمت أنه حقيقة لن يتكلم ، وقد وجدت ملاحظ « النقطة » غارقاً لأذنيه فى تحرير « محضره » الذى سأضرب به عرض الحائط ؛ فالنيابة متى حضرت بحثت كل شىء من جديد.. وباشرنا التحقيق مفتتحين بمحضر المعاينة ، فأمسك الكاتب ورقة وقلماً ودنامنى فأمليت عليه الديباجة المعروفة : « نحن فلان وكيل النيابة ومعنا فلان كاتب التحقيق. الليلة الساعة كذا وردت إلينا الإشارة التليفونية رقم كذا ونصها كذا. وعليه قمنا بسيارة إلى ناحية كذا، فبلغناها افتتاح هذا المحضر إلخ إلخ .. ذلك أنى أحب دائما أن أعنى بتحرير «محضرى» أن أجعله مرتباً ترتيبا منطقيا والمحضر هو كل شىء فى نظر أولى الأمر. وهو وحده الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة. أما ضبط الجانى فأمر لا يسأل عنه أحد. ويلى «الديباجة» وصف الإصابة والملابس والموضع الذى وجد فيه المجنى عليه. فما قصرنا. وأمليت على الكاتب أوصاف ذلك الجرح النارى الذى رأينا ثقبه المتسع فى كتف المصاب. وقد حدث فيما أرى من

« حشار » بندقية أطلقت على بعد غير كبير فهتكت اللحم وأنزفت الدم . وقد وصفنا الوجه خير وصف ، وهو لرجل قارب الأربعين وسيم قسيم ، تلك الوسامة الريفية بما فيها من رجولة وصحة وقوة . و لم يفتنا ذكر وشم العصفور المرسوم فى أعلى صدغه ، ولالون شاربه الضارب إلى الصفرة والثياب أحصيناها من « الدفية » والجلباب الغزلى وكيس النقود الذى لم يمس ، إلى السروال « البفتة » الأبيض ذى التكة الحمراء . نعم ، لم ننس تكة اللباس ونوع نسيجها ، فإن ذكر التفاصيل دليل على الدقة والعناية . هكذا تعلمنا التحقيق كابراً عن كابر ! وأذكر أنى تركت ذات مرة جريحاً يعالج سكرات الموت ، وجعلت أصف سرواله وتكته و « بلغته » و « لبدته » ، فلما فرغت انحنيت على المصاب أسأله عن المعتدى عليه ، فإذا بالمصاب قدتوفى . و لم ننس وصف المكان ، وهو طريق ضيق بين مزارع قصب على الجانبين . ولا عجب ، فإن لكل نوع من الزرع محصوله من الجرائم : فمع ارتفاع الذرة والقصب يبدأ موسم ، « القتل بالعيار » ، ومع اصفرار القمح والشعير يظهر الحريق « بالجاز والقوالح » ، ومع اخضرار القطن يكثر « التقليع والإتلاف » وانتهينا من الجريح المحتضر ، و لم يعد يهمنا أمره بعد أن ملأنا « محضرنا » بأوصافه ؛ فتركناه فى دمه تحت رعاية ضابط « النقطة » حتى يأتى لحمله إلى المستشفى رجال الإسعاف . وذهبنا إلى « دوار » العمدة حيث كانت فى انتظارنا القهوة . وآه من قهوة « العمدة ! » إنى أسميها دائما « الكلوروفورم » ؛ فما من مرة إلا أحدثت عندى عكس المقصود من شربها ! ولست أدرى العله ؛ غير أنى سمعت ذات ليلة عمدة من هؤلاء العمد يصيح فى تابعه أمامنا . « هات ياولد قهوة بن » ، و لم أفهم وقتذاك معنى لإضافة لفظ « البن » إلى « القهوة » ؟

أترى النص على البن « صراحة » جاء من قبيل التأكيد ، أم على سبيل التشريف والتكريم ؟ لست أعلم . إنما الذى علمته يومئذ واستوثقت منه أن هذا « اللفظ » الأخير وإن دخل فى تركيب الجملة . لم يدخل فى تركيب القهوة . وجلسنا فى « المنظرة » على فرش من قطيفة ذهبَ وبرها ولونها ، ووضع الكاتب أوراقه على خوان أعرج ، تعلوه رخامة مكسورة ، ونشر المحضر « تحت » مصباح كبير له دوى وطنين قد جمع حوله هوام الليل ، وصحت أطلب الشهود . فصاح المأمور لصياحى . « اجمع الشهود يا حضرة المعاون » . وارتمى على مقعد رحب فى ركن الحجرة ارتماءة أدركت معها أن ليس بعدها غير نعاس وغطيط ، وجلس مساعدى على مقربة منى يرمق ما يجرى بعيون فاترة ، تنم عن كسل بدأ يداعبها مداعبة النسيم للأوراق . وجاءونى بالخفير النظامى الذى سمع صوت العيار وهرع إلى مكان الجريمة أول من هرع . فلم يخيب ظنى فى شيء إلا فى قوله إنه سمع عيارين ، مع أن الوارد فى « الإشارة » عيار واحد ، والاصابة من عيار واحد ، وأقوال الحاضرين متفقة علىّ أنه لم يدو فى القرية سوى عيار واحد . ما حظ هذا الرجل من الكذب ؟ لست أدرى ، وتركنا جوهر القضية وانصرفنا إلى مسألة العيار والعيارين . فسألنا الجميع من جديد فأجابوا مجمعين . عيار واحد ياسعادة البك .

— سمعت ياخفير ...

— عيارين يا سعادة البك .

— متأكد ؟

— عيارين يا سعادة البك .

هنا ثقل التحقيق وسماجة المهنة . أفهم أن يكذب المتهم ، فهو

حقه الطبيعى ، وما أطمع قط أن يصدقنى متهم . ولكن الشاهد ، ماذا يحمله على أن يلقى على وجه الحقيقة كلفاً من التشكيك والتناقض ، لوجه الله تعالى . ؟

ومضى التحقيق فى شعاب مظلمة لا أمل معها فى الوصول إلى شىء . فما من أحد يعرف الجانى ؛ ومامن أحد يتهم أحداً ؛ ومامن أهل للمضروب فى هذا البلد غير أم عجوز مريضة كسيحة ضعيفة البصر لا تستطيع الكلام ، وغير زوجة ماتت منذ عامين وتركت طفلا صغيراً لا يصلح للوقوف أمامنا فى موقف السؤال،ومامن أحد يعرف أن بين المصاب وبين إنسان على وجه البسيطة عداوة أدت إلى ارتكاب الجريمة . أهبط إذن شيطان من الجحيم فأطلق على الرجل العيار ؟ لا أحد يدرى . لقد وجدت ما حسبت . إنى منذ قرأت « الإشارة » أدركت أن القضية ميتة . وهل أستطيع أنا « بتحقيقى » أن أبعث الحياة فيما لا حياة فيه ؟ إن لم يقبل علىّ الشهود بالصدق ، وتعاوننى الأهالى بالرغبة والإخلاص فأى « محضر » فى الوجود يوصلنى إلى التشرف مرة بمعرفة جان من الجناة ؟ وجاءت نوبة العمدة فى الشهادة ، وحلف اليمين وبدأنا نلقى تلك الأسئلة التى لا تقدم ولا تؤخر .. وإذا بغطيط يعلو من ركن الحجرة ويغطى على التحقيق . فالتفت فإذاالمأمور قد « كوع » على « الكنبة » ؛ ورأى العمدة هذه الالتفاتة منى ، فاستأذننى واتجه إلى المأمور وأيقظه فى لطف :

— تفضل يا بك على السرير فى القاعة .

وقاده فى أدب ولطف إلى حجرة أخرى داخلية . ثم عاد أمامى يدلى بما عنده من أقوال رسمية « تجارية » قد دمغت بطابع الوظيفة ألفاظها وعبارتها تكاد لا تتغير بين عمدة وآخر ، وهى على كل حال لا تنفع ولا تضر ،

وتلقى على نار الحادث برداً وسلاماً ، و لم يكد حضرة العمدة يوقع بإمضائه الذى يضاهى نبش الدجاج تحت أقواله ، ويتنحى عن موقف الشهادة ، حتى فتح باب الحجرة الداخلية وظهر المأمور وهو يحك جسمه بأظافره ويلتقط بأصبعه أشياء على ملابسه ينفضها عنه ، وهو يرغى ويزبد :

ـــ سرير ! أعوذ بالله ! انت عمدة أنت ... ؟

فعلمت ما حدث بالتمام . وضحكت فى نفسى . وتظاهرت بالانهماك فى عملى فلم أرفع وجهى عن الأوراق . وجلس المأمور فى مقعده جلسة من قد ذهب النوم من عينيه ذهاباً لا رجعة له تلك الليلة . و لم يلبث أن صاح فى العمدة :

ـــ هات قهوة والسلام . اعملها موزونة وحياة عينيك .

ثم وجه إلىّ الكلام كأنه يريد أن يسلى سهره :

ـــ القضية على الحبل ؟

وهو يرمى بهذا الاصطلاح إلى استطلاع حال القضية ومدى نجاحها النجاح الذى يؤهلها للذهاب برأس المتهم إلى المشنقة فأجبته فى صوت غير مرتفع دون أن أنظر إليه ، وكأنى أخاطب نفسى .

ـــ القضية على السرير !

وفجأة نهض المأمور عن مكانه كأنما قد تذكر مفتاح السرو صاح .

ـــ ياشيخ عصفور ! ...

فبرز رأس الرجل العجيب من خلف كرسى من القش بركن مظلم من أركان القاعة ونهض بصولجانه الأخضر كأنه يقول : « لبيك » .

ـــ رأيك ياشيخ عصفور ؟

فلم أطق صبراً . ما كان ينقصنا حقاً إلا أن نستشير المعتوهين فى قضايا الجنايات ! فنظرت إلى المأمور نظرة ذات معنى ، فاقترب منى وقال :

— الشيخ عصفور كله بركة . مرّة دلنا على بندقية متهم مدفونة فى قاع الترعة !

— يا حضرة المأمور . بدلا من سؤال الشيخ عصفور والشيخ طرطور كلف خاطرك وانتقل مع المعاون والعساكر ، وفتشوا دور المشتبه فيهم من الأهالى .

فصاح المأمور :

— يا حضرة المعاون .

فأقبل المعاون من خارج الحجرة وقد سمع قولى ، وقدم إلى رئيسه « محضر تفتيش من قسيمة واحدة » :

— أجرينا التفتيش يا فندم !

فلم ينظر فيه المأمور وناولنى إياه ، فجريت ببصرى على الكلام الطويل العريض وانتهيت إلى العبارة المألوفة : « ... و لم نعثر على شىء من الأسلحة أو الممنوعات ... »

فأشرت فى ذيل الورقة : « يُرفق بالمحضر » ، ووضعت رأسى فى كفى أفكر فيما ينبغى عمله فى هذه القضية ، وفيمن ينبغى سؤالهم حتى تكمل محضرنا عشرين صفحة على الأقل . ذلك أنى ما زلت أذكر كلمة رئيس النيابة يوما لى وقد تناول محضراً فى عشر صفحات :

« مخالفة ؟ جنحة ؟» فلما أخبرته أنها قضية قتل صاح دهشاً : قضية قتل تحقيق فى عشر صفحات فقط.قتل ! قتل رجل ! قتل نفس آدمية فى عشر صفحات ؟! » فلما قلت له : « وإذا ضبطنا الجانى بهذه الصفحات

القليلة » لم يعبأ بقولى ومضى يزن المحضر فى ميزان كفه الدقيق : « من يصدق أن هذا محضر قتل رجل ؟! » فقلت له على الفور : « إن شاء الله نراعى الوزن » !

مر بخاطرى كل هذا وأنا مطرق صامت .. وإذا صوت الشيخ المعتوه يرتفع فى القاعة منشداً :

فتش عن النسوان ،
تعرف سبب الأحزان ،
ورمش عين الحبيبة ،
يفرش على فدان ...

لم أغضب على الشيخ الذى امتهن حرمة التحقيق بهذا الغناء ، ولم أطرده خارج القاعة ، ولكنى تفكرت قليلا فى مغزى كلامه لو أن له مغزى ينفعنى .. كل ما يجوز الالتفات إليه كلمة « النسوان » ، والتفتيش لا عن المشبوهين بل عن النسوان . أى نسوان ؟ إنى لم أر قضية خلت من النسوان مثل قضيتنا هذه . فالمضروب يعيش وحيداً بعد أن ماتت زوجته . ولا أحد معه غير أم عجوز كسحاء لا ينبغى أن تحسب فى النساء . لا ريب أن هذا العصفور لا يعى ما يقول . هذا الشيخ الأخضر من فصيلة الببغاء لا شك ، يردد الألفاظ والأغانى دون أن يعنى بها شيئا من الأشياء .. لكن مهلا ! إن للمجنى عليه طفلا ، فهل تلك الأم المقعدة المريضة هى التى تعنى بشأنه ؟ « تعال يا عمدة ... » وألقيت على العمدة هذا السؤال . فأجاب فى براءة الطفل وسذاجة الأبله .

ـ الولد فى حضن البنت !

ـ أى بنت ؟

ــ البنت ، أخت المرحومة امرأته .

ــ بنت كبيرة ؟

ــ « عيِّلة » .

فنظرت إلى المعاون وأمرته أن يحضر هذه البنت فى الحال . و لم يمض قليل حتى بدت غادة فى السادسة عشرة من عمرها ، لم ترعينى منذ وجودى فى الريف أجمل منها وجهاً ولا أرشق قدا ؛ وقفت بعتبة الباب فى لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس طعمت فى موضع الوجه بالعاج . وقال لها العمدة مشجعاً :

ــ ادخلى يا « عروسة » .

فتقدمت فى حياء ، واضطربت خطواتها ، إذ لم تعرف بين يدى من الجالسين يجب عليها الوقوف . فوجهها العمدة إلىّ فوقفت فى وجهى ورفعت إلى رمشين .. ولأول مرة يرتج على فى « التحقيق » فلم أدر كيف أسألها .. و لم يرها الكاتب ، فقد كان موقفها خلف ظهره . فلما لحظ صمتى ظن بى تعباً ، فغمس القلم فى الدواة ورفع رأسه إليها وهو يسألها :

ــ اسمك يا بنت .. ؟

فما إن وقع بصره عليها حتى حملق فيها و لم يعد إلى الورق . ونظرت حولى فوجدت مساعدى الناعس قد أفاق ونشط وأخذ يرمق الصبية بعينيه الواسعتين ، ونقلت بصرى إلى المأمور فإذا به الساعة فى غير حاجة إلى قهوة ولا إلى بن ، وزحف الشيخ عصفور حتى بلغ موطئ قدمى فأقعى كالكلب ينظر إلى الفلاحة الحسناء فاغراً فاه . حقاً إن للجمال لهيبة .. ورأيت أن أملك سريعا ناصية نفسى قبل أن ينكشف الأمر ، فقلت لصاحبة الجمال وأنا أكبح عينى حتى لا أنظر إليها .

— اسمك ؟

— ريم .

لفظته فى صوت .. هز نفسى كما تهز الوتر أنامل رقيقة ، فما شككت فى أن صوتى سيتهدج إن ألقيت عليها سؤالا آخر فتريثت وبدت لى دقة الموقف وأيقنت ببطء التحقيق إذا قدر لى أن أقف كالدائخ بين السؤال والسؤال فاستجمعت ما بقى عندى من شتات القوة والعزم وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها إلا جملة ، وقلت لها تكلمى فى كل هذا .. ولبثت أنظر ، فعلمت منها العجب العجاب ! إنها حتى الآن لا تعلم ما جرى للمجنى عليه ! فقد أيقظوها من النوم للساعة ، وجاءوا بها أمامى دون أن يذكروا لها شيئاً ؛ و لم أشأ أن أخبرها الآن بما وقع وقد آنست منها أشياء لا يدركها إلا مجرد الإحساس ..

سألتها : ألم يخطبها خاطب ؟ فكان الجواب : بلى : آخر من تقدم إليها فتى جميل لم ترفضه ، ولكنّ زوج أختها وهو مقام وليّها تردد فى القَبُول كما تردد دائما فى قَبُول الأيدى الكثيرة التى ارتفعت تدعوها كما ترتفع أيدى المؤمنين بالدعاء ! ... « أو تحقدين عليه من أجل هذا ؟ » . فكان الجواب كذلك : لا ، قالتها فى نبرة حارة : حرارة خاصة أدركتُها كذلك بإحساسى . « وهل كان بينك وبين الفتى الخاطب اتصال ؟ » نعم لقد اجتمعنا أمام الدار مرتين فى لقاء برىء . وقد علم أنها لا تكرهه زوجاً ، ولكنها تكره مخالفة وليها، وذلك الوالى ما غايته من رد الخاطبين والطلاب ؟ أهو غلو منه فى الحرص على هنائها ؟ أهو لا يجد الزوج الكفء ؟ إنها لا تعلم حقيقة سره . وإنها لتريد أن تعلم . وإن هذا ما يحيرها أحياناً ، وما يبكيها . إنها تريد أن تعلم . تعلم ماذا . ؟ ... لا شىء . لا

تستطيع التعبير .. إن التعبير هبة لا يملكها كل الناس .

وبعد فالتعبير يستوجب العلم بحقيقة الشعور الرابض فى أعماق النفس .. وهذه الفتاة فيما يخيل إلى ، ذات نفس كدغل « البوص والقصب » لا يصل إلى قاعها من الضوء غير قطع كالدنانير تتراقص فى ظلام القاع كلما تمايل القصب ...

على أى حال قد بدأت قطع من الضوء تتساقط أيضاً بين سطور « المحضر » ، وبدأنا نضع أيدينا على عصب نابض من أعصاب القضية ، وهممت أن أطلب فنجانا آخر من القهوة وقد طاب المجلس وحلا التحقيق . وإذا المعاون يسأله ملاحظ النقطة وقد ظهر بالباب :

ـــ أحضرَ الإسعاف ونقل المضروب ؟

ـــ من زمان !

فأدركت الصبية كل شيء فانطلقت من فمها صيحة كتمتها فى الحال خجلا منا ، غير أنى ماشككت فى أن لها دويًا وانفجاراً داخل نفسها . وأردت أن أمضى فى عملى فما وجدت أمامى غير فتاة تجيبنى بكلام أبتر لا شبع فيه ولا غنى . ورأيت أن أرجئ التحقيق فقلت :

ـــ استريحى يا ريم ...

ونظرت إلى المأمور .

ـــ الأحسن نكمل التحقيق الصبح .

فأشار إلى النافذة ، فإذا النهار يدخل منها متلصصاً وقد خدعنى عنه المصباح المضيء . فاستويت على قدمى إذ ذكرت للفور أن جلسة الجنح اليوم ، وقد فاتنى أن أدبر الأمر من الليل حتى يخلفنى فيها نائب من الزملاء ؛ فلا مفر لى إذن من العودة العاجلة حتى أحضر الجلسة فى الميعاد .

ـــ يا حضرة المعاون ! هات البنت فى « البوكس » !

وأقفلنا المحضر على أن نستأنف التحقيق بعد الجلسة فى دار النيابة . وقمنا إلى « الركايب » فامتطيناها عائدين والشيخ عصفور خلفنا يصيح ويلوح بعوده الأخضر فى حركات الثائر المهتاج :

ـــ هى بعينها !

والمأمور يجيبه :

ـــ اعقل ... !

ـــ هى بعينها ، برمشها .. عرفتها ، برمشها .

ـــ اعقل ياشيخ عصفور ، وافطن لنفسك ، تقع من فوق الجحش !

ودب التعب فى أعضائى فانحنيت على ظهر الحصان ، ولكن نسيم الصباح الرطب كان يضرب وجهى ضربات خفيفة كأنها لطمات مروحة فى يد ما جنة ظريفة ، فلم أفقد نشاطى وطفقت أفكر ، وإذا غناء العصفور يرتفع بغتة شديداً كأنه شيء قد انخلع مع قلبه :

ـــ ورمش عينها يفرش ...

ولم أسمع البقية ، بل سمعت شيئاً سقط على الأرض فالتفتنا فألفينا الشيخ عصفور بأطماره على الأرض قد فرش .. فوقفنا . وأسرع إليه الخفراء فحملوه إلى حماره ، فاستوى عليه وهو ينفض عن جسمه التراب صائحاً مستأنفاً :

ـــ ... على فدان ...

وسمعت المأمور ومساعدى يضحكان ضحكا صافياً . ثم سمعت المأمور ينتهر المعتوه قائلا له : « افطن لنفسك . صاحبتك غرقت فى

الرياح من سنتين. و لم يكن فى عقلى وقتئذ غير صورة الفتاة فى أطمارها[١] السوداء وسرها الذى لم أنفذ إليه بعد. إن سرها هو سر القضية. وإنى لتدفعنى إلى استجلاء الأمر رغبة لا شأن لها بالعمل . إنى أيضاً أريد أن أعلم . وسارت القافلة حتى بلغت مصرفاً متسعاً عميقاًزا خراً بالماء ، ركبت عليه خشبة من جذوع النخل فى عرض الذراع . وأراد الخفير أن يدفع عجز حصانى ليجتاز بى المصرف على هذه الخشبة التى فى ضيق الصراط فانتبهت وصحت :

ـــ أنت مجنون يا خفير .. أمر من هنا أنا والحصان ؟

فبدت على وجه الرجل دهشة :

ـــ سبق لك يا سعادة البك المرور من هنا بالليل أنت والحصان ده .

فنظرت إلى الخشبة فى شبه رعب :

ـــ أنا ؟ عديت بالليل المصرف من هنا على الخشبة دى ؟ وكنت وقتها فوق الحصان ده ؟ مستحيل !

ـــ الطريق واسع يابك والحصان عاقل ..

و لم أرد أن أصغى إلى كلام الخفير أكثر من ذلك . فإذا كانت هذه الخشبة طريقاً متسعاً فى نظر هذا الرجل فهو من غير شك سيجتاز الصراط فى الآخرة راكباً جملا . أما عقل الحصان فإن ضمنه هو ، وهو ليس راكبه ؟ فما يحملنى أنا الراكب على هذه الضمانة الخطرة ؟ وأسرعت فنزلت إلى الأرض واجتزت المصرف ما شيا على قدمى فوق الخشبة ؛ معتمداً على عصاى ...

---

(١) الأطمار : جمع طمر وهو الثوب البالى .

١٢ أكتوبر :

لما عدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سيارتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالى ببابها مكدسين كالذباب . وكان مساعدى قد نخر إلى جوارى صريع الكرى ، ولم يهمنى أمره ، ولم يدر بخلدى قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجوارى كما شهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلأترفقن به فى أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف وأوصيته أن يمضى بالمساعد إلى منزله ، وحييت المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضى فى الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضى حتى وجمت ؛ ففى المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم فى القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أول قطار ، ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذى يعود إلى القاهرة . ومهما زادت القضايا وبلغ عددها فإن هذا القطار لم يفت القاضى يوماً قط . أما القاضى الثانى فهو رجل ذو وسواس ، وهو بعد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطئ فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ولعله أيضاً يريد شغل وقته وتسلية ضجره فى هذا الريف وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده ؛ فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سمرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تذيقنى جلسته مرّ العذاب ، فهى الحبس بعينه ، وكأنما قضى على أن أربط إلى منصتى لا أبدى حراكاً طول النهار ، وقد وضع حول عنقى وتحت إبطى ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام إلهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها (١) علينا فندفع ثمنها فى الحياة دون أن نعرف ؟

ووجمت لرؤية القاضى إذ أدركت أنى وقعت فى جلسة لاترحم بعد

---

(١) مسئولياتها

ليلة كلها عمل . ولست أدرى ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأ أن اليوم نوبة القاضى السريع .

* * *

دخلت الجلسة ؛ وكان أول ما فعلت أن نظرت فى « الرول » فإذا أمامنا سبعون مخالفة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفيل أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم . على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر ؛ والسبب بسيط : أن القاضى الموسوس لا يحكم فى المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين ، وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب . وطالما تبرم هذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدرى العلة . فكنت أقول فى نفسى « ارفع أسعارك تر ما يسرك » وبدأ المحضر ينادى أسماء المتهمين من ورقة فى يده . وقزمان أفندى المحضر رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا ؛ وهو إذا نادى تعاظم فى حركاته وإشاراته وصوته ، والتفت إلى الحاجب بالباب التفاتة الآمر الناهى ، فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر ، ولكن فى مدّ وغن ونغمة كنغمة الباعة المتجولين وقد لاحظ ذلك أحد القضاة مرة فقال له : « أنت يا شعبان قاعد تنادى على قضايا جنح ومخالفات ، أو على بطاطة وبلح أمهات ؟ » فأجابه الحاجب : « جنح ومخالفات أو بلح أمهات ؛ كله أكل عيش » .

ومثل أول المخالفين أمام القاضى الغارق فى الأوراق فرفع القاضى رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه ، وقال للماثل بين يديه :

(١) مسئولياتها

— أنت يا رجل خالفت لائحة السلخانات بأن أجريت ذبح خروف خارج السلخانة .

— يا سيدى القاضى ، الخروف ... ذبحناه . ولا مؤاخذة ، فى ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة طهور الولد .

غرامة عشرين « قرش » . غيره ...

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى ... مخالفات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه ... وقد تركت القاضى يحكم وجعلت أروح عن نفسى بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة . وقد ملأوا المقاعد « والدكك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات ... فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يدية عصا . وضاق ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح :

— فهمونى الحكاية ! الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة . !

وحملق فى الناس بعينين كالحمصتين خلف المنظار الراقص على طرف أنفه ، و لم يفطن أحد ولا هو نفسه لما فى هذه العبارة من تعريض . ومضى المحضر ينادى وقد تغير قليلاً نوع المخالفة ودخلنا فى نوع جديد فقد قال القاضى للمخالف الذى حضر :

— أنت يا رجل متهم بأنك غسلت ملابسك فى الترعة .

— يا سعادة القاضى ربنا يعلى مراتبك ؟ تحكم على بغرامة لأنى غسلت ملابسى ؟

— لأنك غسلتها فى الترعة .

— وأغسلها « فين » ؟

فتردد القاضى وتفكر و لم يستطع جواباً . ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون فى تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من الأنابيب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك

يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز ، والتفت القاضى إلى وقال :

ـــ النيابة .

ـــ النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون ! فأشاح القاضى بوجهه عنى وأطرق قليلا وهز رأسه ثم قال فى سرعة من يزيح عن كاهله حملا :

ـــ غرامة عشرين ! غيره .

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته « المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبر يال وحذائه « اللستيك » الفاقع فى صفرته ، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال . فما أن مثل حتى ابتدره القاضى :

ـــ أنت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك فى الميعاد القانونى .

فتنحنح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع .

ـــ عشنا وشفنا الكلاب تتسجل « زى الأطيان » وتبقى لها حيثية !

ـــ غرامة عشرين ... غيره .

ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هذا النحو ، ولم أر واحداً من المخالفين قد بدأ عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب ، إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب ، وإتاوة يؤدونها . لأن القانون يقول : إنهم يجب عليهم أن يؤدها ! ولطالما سألت نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر : « قضايا الجنح » ونظر فى ورقة « الرول » ونادى « أم السعد بنت إبراهيم الجرف » فظهرت فلاحة عجوز تدب

فى وسط القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدى قزمان أفندى المحضر . فوجهها إلى القاضى فوقفت تنظر إليه ببصر ضعيف ثم لم تلبث، أن تحولت عنه وعادت إلى الوقوف بين يدى المحضر الهرم. وسألها القاضى ووجهه فى الورق:

ـــ اسمك ؟

ـــ محسوبتك أم السعد .

قالتها وكأنها توجه الخطاب إلى المحضر فغمزها قزمان أفندى ووجهها إلى المنصة مرة أخرى وسألها القاضى .

ـــ صنعتك ؟

ـــ صنعتى حرمة (١) .

ـــ أنت متهمة أنك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة .

فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر :

وحياة هيبتك وشيبتك إنى ماعبت أبداً . أنا حلفت ووقع منى يمين أن البنية ما يقل مهرها عن العشرين بنتو ...

فرفع القاضى رأسه وثبت منظاره ونظر إليها صائحاً :

ـــ تعالى كلمينى هنا ، أنا القاضى أنا ، العضة حصلت منك ؟ قولى نعم أولا ، كلمة واحدة .

ـــ عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لكن كله إلا العض .

فصاح القاضى فى المحضر : « هات الشاهد » فحضر المجنى عليه وقد لف بنصره فى رباط صحى ، فسأله القاضى عن اسمه وصناعته وحلفه اليمين أن لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر . فقال الرجل :

---

(١) ولية .

— أنا يا حضرة القاضى لا لى فى الطور ولا فى الطحين . والقصة وما فيها أنى كنت واسطة خير .

وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سرّ القضية . فحملق فيه القاضى وهو يكظم غيظه ، ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ؛ فبسط الرجل الأمر قائلا : إن هذه المتهمة ابنة تدعى ست أبوها » خطبها فلاح يدعى « السيد حريشة » وعرض مهراً قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد إلى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبى صغير يطلق عليه اسم « الزنجر » فذهب من تلقاء نفسه إلى أهل العروس وأبلغهم كذباً أن الخاطب قد قبل الشرط ؛ ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا الصبى ومكره بالطرفين أن حدد يوم لقراءة الفاتحة فى بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج هذا ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة . وما كاد الطعام يهيأ ويقدم إلى الضيوف حتى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم الجدال بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول فى صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة يا شماتة الأعادى والنبى ما أسلم بنتى بأقل من عشرين . وخرجت المرأة فى وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛ وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده فى طعام وقام إلى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها . بينما مد زميله الشيخ فرج يده إلى الأوزة وينهش منها نهشا دون أن يدخل فى النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا فى طبق الأوز ولكن فى فم العجوز ؛

فصرخ صرخة داوية وانقلبت الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ، وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعا ، وخرج به وهو يحرق الأرم : فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظى بالأكل ، وهو الذى تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه ...

واسترسل المجنى عليه فى الكلام . وفجأة أخذت القاضى خلجة . وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم ، وقال كالمخاطب لنفسه : « ياترى أنا حلفت الشاهد اليمين . » والتفت إلىّ قائلا يا حضرة وكيل النيابة أنا حلفت الشاهد اليمين ؟؟ » فجعلت أتذكر ... و لم يستطع القاضى طرد الشك فصاح : « احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » فحلف الرجل . فصاح به القاضى : اذكر أقوالك من أولها » .

فعلمت أننا لن ننتهى ، وبلغ الضيق أنفى وتثاءبت وغرقت فى مقعدى وقد عبث النوم بأجفانى ، ومضى وقت لست أدرى مقداره ، وإذا صوت القاضى يصبح بى : « النيابة ! طلبات النيابة . »ففتحت عينين حمراوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم ، فأخبرنى القاضى أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعى فإذا الإصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هى فقد « السلامية » الوسطى للبنصر ؛ فاعتدلت فى مقعدى وطلبت فى الحال الحكم بعدم الاختصاص . فالتفت القاضى إلى العجوز قائلا :

ـــ الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة الجنايات . فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالعضة فى نظرها هى ما زالت العضة ، فما الذى حولها من جنحة إلى جناية ؟ آه من هذا القانون الذى لايمكن أن يفهم كنهة هؤلاء المساكين !

ونوديت القضية التالية ، فإذا هى شجار بالهراوات وقع بين والد

« ست أبوها » وبين أهل الزوج (السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر . وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها . فقابلهم الأب محتدا صارخاً فى وجوههم « جمل » ؟ بقى بنتى تخرج على جمل ! أبدا . لا بد من « الكومبيل » ،

وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التى رماها بهم تطور العصر . وأدى الجدال إلى رفع العصى وإسالة بعض قطرات من الدماء لا مناص منها فى مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين فى الخير ريالا من جيبه واستأجر سيارة من تلك السيارات التى تمر بالطرق الزراعية ، وحكم القاضى فى هذه القضية ثم صاح :

— « انتهينا من الفرح » و « الدخلة » على خير ! ... غيره ! فنادى المحضر بصوته الممتلئ« قضايا المحابيس » وذكر اسماً من الأسماء ، فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لا بسى الخيش رجل فك الحارس قيده . ونهض من بين المحامين أفندى ذو بطن كأنها القربة المملوءة وقال : « حاضر مع المتهم » . « فقلت فى نفسى » : تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ فى رؤوسنا ما شاء بحجة حرية الدفاع . فلأغمض عينى منذ الآن فرأسى أحوج ما يكون إلى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضى يقول للمحبوس :

— أنت متهم بأنك سرقت « وابور غاز » ...

— أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان . لكن لا سرقت ولا نهبت ...

فالتفت القاضى إلى المحضر قائلا : « هات الشاهد » فحضر رجل على

رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه « دفية » فحلف اليمين وقال إنه أشعل « وابور الغاز » ليهيئ الشاى لبعض « الزبائن » الجالسين داخل الحانوت . فهو بدال ريفي صغير يبيع السكر والبن والشاى والتبغ ويجتمع لديه أحياناً بعض الناس كأنهم فى شبه مقهى ، ولقد وضع الوابور مشتعلا عند عتبة الباب فى الطريق ودخل يحضر الإبريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به . وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق ، والقاضى مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر فى شيء آخر . وفجأة نظر إلىّ وقال كالمخاطب لنفسه : « أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ » فما تمالكت أن صحت فى ضيق : « سبحان الله ! أنا سمعت الشاهد حلف » ، فقال لى القاضى : « أنت متأكد ؟ » فشعرت أن روحى تفارقنى فهمست : « تحب أنى أحلف لك أنه حلف ؟ » فاطمأن القاضى بعض الاطمئنان وأصغى إلى بقية الشهود فى صمت وانتباه . و لم يطق المتهم صبراً فنهض بغتة كالمستغيث :

— يا حضرة القاضى ! فى الدنيا « حرامى » يسرق « وابور جاز » بناره ؟!

فأسكته القاضى بإشارة من يده قائلا :

— تسألنى أنا ؟! أنا عمرى ما اشتغلت « حرامى ! » ونظر إلى منصة الدفاع ، فقام المحامى عن المتهم يصيح قائلا : « يا حضرة الرئيس ! نحن لم نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا مررنا فى طريق به وابور ... والقضية ملفقة من ألفها إلى يائها ... » وأراد المحامى أن ينطلق فى هذا الكلام وأن يصول ويجول . ولكن القاضى قاطعه :

— حلمك يا أستاذ . المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقى الوابور قدام

باب الدكان .

فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

ـــ هذا سوء دفاع من موكلى .

فأجاب القاضى فى هدوء :

ـــ غرض حضرتك أن أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعاً !

فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا إلى أن كل همه أن يجلجل صوته فى الجلسة ، وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى « زبونه » كأنما يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قد صيرنى شخصاً لا يعى ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهى فى ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس .

١٣ أكتوبر ...

انتهت الجلسة عند العصر ، وقد خرجت منها محطم الأعصاب . وما كدت أفترق عن القاضى حتى وجدت فى وجهى أحد العساكر يحمل أكداساً من « نماذج » تنفيذ الأحكام ، يقدمها إلىّ للتوقيع . فوضعت إمضائى دون وعى على هذه الأوراق التى ليس لها آخر ، وإمضائى الآن لا يمت بصلة الشبه إلى اسمى ، فقد أصبح مع السرعة وكثرة التوقيع خطا أو خطين ألقيهما حيثما اتفق . وما إن فرغت من ذلك وقد تصبب منى العرق حتى سمعت من يضرب الأسفلت بحذائه ويرفع كفه بالسلام :

ـــ التحقيق منتظر فوق فى قضية ضرب النار !

ولكن للقوة الآدمية حدوداً . و لم أتبلغ بلقمة و لم أطرح جسمى على فراش منذ ... منذ أمس الأول . فما تمالكت أن قلت :

ـــ ضرب نار فى عينك ؟ لو كنا عسكر فى الخنادق ، أو فى حرب الدردنيل لرأفوا بحالنا وخافوا على صحتنا ...

لكن ماذنب الخفير أوجه إليه هذا الكلام ؟ فتركته وسرت فى طريقى ، وصعدت إلى مكتبى فى الطابق الثانى فألفيت ببابه الفتاة « ريم » منتظرة مع الحراس وعلى مقربة منها الشيخ عصفور بعوده الأخضر ؛ ولست أدرى ماذا ينتظر مع المنتظرين ؟ وأنعشنى قليلا مرأى الفتاة كما ينتعش العشب الذابل بقطرات الندى . ودخلت حجرتى فرأيت المأمور والمعاون وكاتب التحقيق جالسين فى نشاط المستيقظ من نوم مريح ، فعلمت أنهم آتون من منازلهم وأنهم الآن على استعداد لقتل الوقت فى هذه القضية ، فذلك خير من لعب « الطاولة » فى النادى

أو مص القصب أمام الأجزاخانة . أما أنا فإنسان لا يصلح الآن لشيء إلا للرقاد سبع ساعات متواليات . فأعلنت الحاضرين برغبتي فى تأجيل التحقيق إلى الغد ، فأذعنوا . ولكن بدا مشكل لم يفطن إليه أحد : هذه الفتاة أين تبيت ليلتها ؟ إنها الآن على مسافة بعيدة من قريتها . وليس من الرأى أن تعود لتأتى مع الصباح . فقد يتصل بها بعض من يعنيهم أمر القضية من الأهالى والشهود فيلقنونها مالا يستقيم مع الصدق والحق ، وهى لا تعرف أحداً فى هذا المركز ولا أهل لها به . هنا صاح المأمور كمن وجد الحل السعيد الموفق :

ـــ المسألة بسيطة . البنت تنام فى بيتى للصبح . فالتفتنا إليه جميعاً فى شبه ذعر ؛ ثم تمالكنا أنفسنا ، ولست أدرى كيف دب فينا نحن الحاضرين نفس الشعور فى نفس الوقت . حتى الشيخ عصفور ، وقد زحف خلفى ودلف إلى الحجرة ، ظهر فى عينيه القلق . وكان الموقف دقيقا . إن أى اعتراض منا معناه الريبة فى سلوك حضرة المأمور :

العجيب أن الحاضرين كلهم قد أطرقوا ووجموا ، وأراد المأمور أن يدخل علينا الاطمئنان فقال :

ـــ أنا غرضى أنها تكون فى محل أمين بين زوجتى وأولادى .

ولم أجد بدًّا من الإذعان . وتركت المكان وانصرفت إلى منزلى . وتناولت شيئاً من الطعام على عجل . ثم أويت إلى فراشى واستغرقت فى نوم لم أصح منه إلا عند منتصف الليل . قمت عطشان فشربت جرعة من « القلة » الفخار بالنافذة وتذكرت الفتاة وتخيلتها فى بيت صاحبنا فنفر من رأسى النوم . وتمنيت لو يقع الآن حادث أقوم له ومعى المأمور ولكن الحوادث كالقطط إذا ناديتها رفضت المجىء وإذا طردتها جاءت

تتمسح بالأقدام . و لم أجد ما أصنع . وخالجتنى رِيَب وشكوك . وطال الليل فى نظرى وسمج وتمنيت طلوع النهار . وأردت أن أشغل فكرى بتدوين يومياتى فجمد القلم فى يدى . ووقع بصرى على أكوام من قضايا الجنح والمخالفات والعوارض من « إيراد » اليومين السابقين أرسلها إلى كاتب الجدول لقراءتها وتقييدها ووصف التهمة وتقديمها إلى الجلسات . فلم آنس عندى ميلا إلى العمل .. فاتجهت إلى النافذة وفتحتها واستنشقت هواء الليل الرطب ، ونظرت إلى النجوم تشرف على هذا السكون الشامل فى هذا الريف النائم ، كأنها عيون ساهرة مطلعة على خفايا الأشياء .

فجأة خطر لى أن أرتدى ثيابى وأن أنزل إلى الطريق وأدور حول منزل المأمور . ما هذا الجنون ؟ أنا أفعل ذلك ؟ وإذا(ضبطنى) خفير الدرك ؟ إنه قد يعرف شخصى فيعتذر . ولكنه سيخبر الناس ويشيع الخبر وتكون الفضيحة . لا مفر إذن من انتظار الصباح وما يأتى به ...

على أن الله لطف بى آخر الأمر فأرسل إلىّ إشارة تليفونية ، طالعتها فى الحال فإذا هى واقعة تافهة مما لا نقوم لمثلها بالليل :

« ... بمرور قطار البضاعة نمرة ٣٠٩ خط الدلتا الضيقة عند الكيلو ١٧ أثناء عمل مناورة وجد مسمار حدادى على الشريط والحادثة بفعل فاعل مجهول .. إلخ ... » وقد أشر المأمور فى ذيل الإشارة بانتداب حضرة معاون الإدارة للانتقال وإخطار البك وكيل النيابة للعلم . ومعنى ذلك أنه لن يقوم ولا يريد لى أن أقوم ولكن كيف أضيع هذه الفرصة التى هبطت من السماء ؟ ليس أحب إلى الليلة من أن أقلق راحتى وراحة حضرة المأمور . وارتديت فى الحال ثيابى وأمرت

بإحضار السيارة ومررت بمنزل صاحبنا . وأطلقت عليه من يوسع بابه طرقاً ويخبره بانتقالى . فأطل الرجل من نافذته صائحا :

ـــ مسمار صغير نقوم له كلنا بالليل !

فأخرجت رأسى من نافذة السيارة :

ـــ لو كانت إبرة . ما دامت الحادثة بفعل فاعل أصبحت جناية . لاحظ أنها جناية تعطيل قطار ، أخطر جناية فى الدنيا . لا بد من حضورك يا حضرة المأمور .

ـــ لا بد ... أنا انتدبت معاون الإدارة .

ـــ لا بد من حضورك شخصيا .

ـــ الليلة ... مستحيل ... أنا الليلة ... تعبان ...

ـــ كلنا فى التعب سوا : لكن الواجب يحتم علينا ... !

فأطرق المأمور لحظة مفكراً فى ضيق وامتعاض ، ورأى عزيمتى واستماتتى ، وخشى أن يعارضنى فى أمر متعلق بالعمل . فأذعن وطلب إلى الانتظار هنيهة حتى يرتدى ثيابه ، ونزل وجلس إلى جانبى فى السيارة وهو ينفخ من الغيظ . وتنبهت إلى غيبة الشيخ عصفور . إذ على الرغم من صوت البوق لم يبد له أثر ؛ وكان فكر المأمور مشغولا هذه المرة ، فلم يفطن لغياب الشيخ ، فلقد مضى فى إطراقه برهة ثم قال :

ـــ أى نعم ! الواجب يحتم علينا .. لكن يعنى ... مسمار !؟

فأغمضت عينى حتى لا ينتظر منى جواباً ، فاستطرد :

ـــ الله يمسيه بالخير وكيل النيابة سلفك . كان يسأل فى قضية القتل شاهدين فقط لا غير ويقفل محضره ويميل على ويقول : « هو القتيل أبونا والا أخونا ؟ قم يا شيخ نبل ريقنا » !

ولم أعقب على كلامه بحرف ، ولم أنبس طول الطريق بكلمة حتى بلغنا الكيلو ١٧ . ووجدنا عمال الدريسة وقطار البضاعة وسائقه . وقدم إلينا نائب العمدة المسمار ، وأشار إلى عربة محملة بأكياس من القطن كادت تخرج عن القضيب ؟ فتناولت المسمار بين أصابعي وجعلت أفحصه ، والمأمور خلفي يقول باسما :

— « كان العطشجي فين لما الوابور وقع انكسر » ، فعلمت أنه يهزل ، وأنه يشير إلى تلك الأغنية التي كانت شائعة منذ ثلاثين عاما يوم كانت شفيقة القبطية تجلس على عرش الطرب . وسمع السائق تلك العبارة وحملها محمل الجد فتقدم يقول :

— لا حصل كسر ولا وقوع يا فندم ! وأنا ساعة الحادثة كنت جنب الفرملة ، وربطت في الحال ...

ومضى يسرد آراءه قائلا : إن أهل هذه المنطقة بسطاء العقول ولعلهم من أصلاب تلك القرية التي « عزمت القطار » في أول ظهوره وقدمت إليه الطعام والشراب ، ولا يبعد أن يكون أحد هؤلاء الأهالي قد دفعه العبط أو حب الاستطلاع أن يضع هذا المسمار على الخط الحديدي ليرى ما يصنع القطار ، وكيف يتصرف ، وكيف يقع على جنبه أو على وجهه . وتقدم عامل دريسة فقال : إن المسألة ليست مسألة بساطة أو بلاهة . إنما هو انتقام من الشركة فالأهالي في هذه الجهة يعيشون على استخراج الحصى من الجبل ونقله على الحمير والجمال وبيعه للمقاولين ، فجاءت شركة سكة حديد الدلتا الإنجليزية فمدت هذا الخط حديثاً إلى الجبل وخصت نفسها بهذا المورد وانتزعت بذلك هذا الحصى من أفواه هؤلاء الجياع المساكين ، وسواء أكان هذا هو السبب أم ذاك فإن الفاعل هنا أيضاً

غير معروف ولا ينتظر معرفته . وقد انتهينا من الأمر بأن وضعنا المسمار داخل « حرز » وختمنا عليه بالشمع الأحمر وأرفقناه بالأوراق .. إلى آخر هذا الكلام الرسمي الذى هو كل بضاعتنا ، وكان الندى قد تساقط على رؤوسنا فرأى المأمور فتح المحضر فى « دوار » العمدة فسألت عن المسافة بيننا ، وبينه ، فرد نائبه قائلا :

— « فركة كعب » يا حضرة البك !

فصدقناه ، وسرنا على أقدامنا حتى كادت مفاصلنا تنخلع ، وما وصلنا حتى أذن الفجر فى زاوية الناحية ، وتركت المأمور « يسبخ » لنائب العمدة على « فركة » الكعب ، وانهمكت فى فتح المحضر وسؤال الشهود حتى فرغت منهم جميعاً ، وأردت أن أختم محضرى ، وإذا بى أرى حركة نصب مائدة وإعداد طعام وحضرة المأمور قائماً قاعداً ينظر فى الخوان ويدخل ويخرج دون أن أعلم ما يشغله من الأمر ، وأخيراً سمعته يقول للعمدة فى ناحية :

— اسمع يا عمدة ! البك الوكيل لا يحب الخرفان على الصبح ولا الديوك ولا حاجة أبداً ، ولكن لا بأس من كم زغلولة مدفونة فى الأرز ، والقراقيش إياها والفطير المشلتت : وإن كان عليه كم كتكوت محمر مفيش ضرر ، واللبن الرايب طبعاً شيء مفيد للصحة ، ولا بأس من كم بيضة مقلية فى القشدة ، كفاية ، إياك يا عمدة تعمل حاجة زيادة ، البك الوكيل أكلته ضعيفة ، إن كان عندك عسل نحل بشمعه لا بأس . قرصين جبنة ضانى لا مانع ، طبق كعك وغريبة ... الغرض حاجات خفيفة لطيفة وانت سيد العارفين !

أطرقت لهذا الكلام واحمر وجهى و لم أدر ما أصنع ، ورأيت الخير فى أن

أسرع بالانصراف . فطويت أوراقى على عجل . ولكن عين المأمور لحظتنى وأدرك غرضى . فجاءنى مسرعاً يسألنى :

ـــ التحقيق انتهى ؟

ـــ من زمان !

فنظر إلى المائدة التى لم يوضع عليها شىء بعد ثم نظر إلى :

ـــ جميع الشهود أعطوا أقوالهم ؟

ـــ جميعهم .

ـــ ولا شاهد واحد فاضل ...

ـــ ولا ربع شاهد .

فتركنى وخرج سريعاً ثم عاد بعد قليل يجذب أحد الأهالى من « حزامه » ودفعه أمامى دفعاً وأشار إليه وقال :

ـــ شاهد مهم قوى ، عنده أقوال .

فأبديت ارتيابى فى قيمة كلام هذا الرجل وأظهرت رغبتى فى الاكتفاء بمن سألت من شهود . ولكن المأمور ألح فى الرجاء أن أصغى إلى هذا الشاهد أيضاً فإن لديه معلومات ذات أهمية عظمى . فنشرت ورقى من جديد وما كدت أبدأ فى إلقاء السؤال ، حتى برز العمدة وخلفه خدمه يضعون الطعام على المائدة .. وارتفع صوت سيد الدار يدعونا إلى الفطور ... فاعتذرت بضعف صحتى وإمساكى عن الأكل عادة فى الصباح .. فانطلق من العمدة قسم غليظ ... وتواطأ فى الحال مع المأمور على حملى من مكانى حملا ... وإذا بى أجد نفسى فى صدر المائدة ... فأذعنت ، وجعلت أنظر ساعة إلى هؤلاء المخلوقات وبينهم المأمور ، يأكلون وينهشون ويزدردون وقد انشغلوا بأنفسهم فلم يفطنوا حتى إلى قِلة

أكلى ؛ وقمت من بينهم متسللا بعد قليل وجلست فى مكانى الأول أنتظر تارة وأتصفح محضرى تارة إلى أن فرغوا من أمر بطونهم وأتوا على ما فوق الخوان وقاموا يمسحون أيديهم فى غطاء المائدة الذى لم يَرَ وجه الصابون منذ عامين وأقبل علىّ المأمور يتجشأ ويقول :

ـــ أظن نرجع ما دام التحقيق انتهى ...

فأشرت إلى الشاهد الذى كان قد جاءنى به وقد نسيه الآن فيما يظهر :

ـــ لما نسأل الشاهد المهم ... !

فأجاب المأمور من فوره :

ـــ لا مهم ولا حاجة ...

وتركنى واتجه إلى الفلاح وقال له :

ـــ انت يا ولد عندك معلومات ... ؟

فأجاب الفلاح :

ـــ « لع » ...

أى : لا ، فالتفت المأمور إلىّ قائلا :

ـــ جحش الله فى برسيمه ... ! لا عنده معلومات ولا يحزنون ... قم بنا يا سعادة البك نرجع بلدنا ... !

ونهضنا عائدين ، وقد ارتفعت الشمس ... و لم نكد نبلغ دار المركز حتى أقبل علينا « البلوكامين » يحمل إشارة من المستشفى الأميرى أن المصاب « قمر الدولة علوان » قد أفاق من غيبوبته والآن يمكن استجوابه ، فأسرعنا إلى المستشفى لا نلوى على شىء ، خشية أن يعود المصاب إلى الإغماء أو سوء الحال ، فلا نستطيع أبداً أن نستخلص من بين شفتيه سر الحادث ...

ودخلنا المستشفى وسألنا عن « الحكيمباشى » فقيل لنا إنه فى قاعة العمليات ، فسرنا فى الردهة الموصلة إليها ، فقابلنا تلك الأسرة الصغيرة والمحفات التى تجرى على عجلات فوق الأسفلت كأنها عربات الحمالين فى المحطات الكبرى ، ورأينا تلك المباخر وأدوات التعقيم تدفع على بكر ويتصاعد منها البخار، والممرضون فى هرج ومرج بأرديتهم البيضاء يدفعون تلك العجلات التى تحمل أجساما فى طريق الفناء ، ويدخلون بها تلك القاعة الرهيبة ويخرجون دون أن يبدو على وجوههم أثر اهتمام لموت أو حياة ، فوقفت قليلا وقد شرد خاطرى وخامرنى إحساس من يقف فى المحطة بين القُطُر . نعم ، أو لست الساعة فى تلك المحطة التى يسافر منها المريض إلى العالم الآخر ؟ وحانت منى التفاتة إلى باب المستشفى الكبير ورأيت العسكرى المكلف بالحراسة يطرد زرافات النساء المجتمعات فى ثيابهن السود ، و « طرحهن » الزرق وأصواتهن التى يقطعها عويل القلق فعلمت أنه سيلقى إليهن بجثة بعد قليل . فإنهم فى كل يوم يلقون خارج أسوار هذا المكان بجثة أو جثتين ليفترسها الحزن الرابض بالباب ذو الناب الأزرق فى لون « النيلة » والمخلب المعفر بالطين والتراب .

وفتح باب قاعة العمليات وخرج ممرض يحمل دلواً فيه دم سائل ومتجمد وقطع من اللحم كأنها أحشاء خروف ، فنظرت فى ذلك ، فقال الرجل إن هذا خرج من بطن امرأة هى الساعة فوق المشرحة تحت البنج ، فجمدت فى موقفى . وبادر المأمور وطلب باسمى مقابلة الحكيمباشى فى الحال . فذهب الممرض وعاد يفتح لنا باب قاعة العمليات ، فتجلدت ودخلت وخلفى من كان معى فقابلنى الحكيمباشى بابتسامة وهو ما زال منحنياً فى معطفه الأبيض على شىء فوق المشرحة ، وقد شمر عن ذراعيه

وفى يده أداة كأنها « الكماشة » وحوله رهط من أصدقائه غير الأطباء عرفت منهم بعض الأعيان فى ملابسهم العادية . فدنوت ونظرت إلى الذى بين يديه فإذا هو جسم فتاة قد شق بطنها شقاً طويلا من الصدر حتى أسفل البطن ، وإذا « الكماشة » فى يده تجمع الجلد الذى انشق وتخيطه بشىء كأنه المسامير الصغيرة ، والطبيب يفعل ذلك فى سرعة غريبة وهو يثرثر مع ضيوفه مازحاً كأنه « حاو » يفاخر بخفة يده ومهارة صنعته . ونظرت فى وجه البنت الشاحب وهى كالميتة ، ثم إلى جلدة بطنها وقد رشقت بالمسامير فى صف طويل كأنها جلدة حذاء فى يد الإسكافى ؛ فشعرت بدوار فى رأسى وخفت أن أسقط ، فاعتمدت على جانب المشرحة . ولحظ الطبيب اصفرار وجهى فترك المريضة وحدق فى وجهى قلقاً فأسرعت وخرجت من القاعة وأنا أقول له فى صوت لم يخرج إلا نصفه من حلقى :

— منتظرك يا دكتور بعد العملية .

وسألنى الدكتور عما بى فلم أستطع التعليل . إنى قد شاهدت كثيراً من عمليات التشريح ، وطالما رأيت جثثاً تقطع أمامى وبطوناً تبقر فلم أتأثر ، ولكنها كانت أجساداً لا حياة فيها ؛ أترانى شديد التأثر لمرأى الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات ؟ أم أنها فضلة من رائحة البنج عبق بها جو قاعة العمليات فبلغت خياشيمى إذ دنوت من جسم الفتاة ؟

وأعادنى الهواء الطلق خارج القاعة إلى نشاطى وجلسنا ننتظر فى مكتب الحكيمباشى ، ونشرب قهوة طلبها لنا « الباشتمرجى » . إلى أن حضر رئيس الدار فقادنا مرحباً إلى « عنبر » المصاب .

وجلسنا معه خلال ممرات ازدحمت بالأسرة إذ لم تكف « العنابر »

لإيواء هذا القدر من التعساء . ورأينا المرضى الناقهين من أصحاب « الزعابيط » الزرقاء يتناولون فى نهم حساءهم فى أوان صغيرة من « الألومنيوم » ، وينظرون إلينا ومعنا الحكيمباشى كما ينظر القردة فى حديقة الحيوانات إلى الحراس مع كبار الزائرين .

ووصلنا إلى سرير « قمر الدولة » ، فوجدناه ممدداً لا يتحرك ونزع الحكيمباشى من رأس السرير تلك الرقعة التى يدون فيها تطورات مرضه وقرأ علينا تشخيصات طبية لم أحفل بها الساعة وقلت :

— الغرض ، يمكننا استجوابه حالا ؟

أجاب الطبيب فى صوت خافت :

— أظن مع الاختصار الكلى .

ثم دنا من المصاب وناداه فى هدوء ففتح قليلا عينين ذهب بريقهما وكأنهما لا يريان ولا يثبتان على شىء بعينه . فاقتربت من الرجل وسألته :

— يا قمر الدولة ! من ضربك ؟

فلم يجب . فأعدت عليه السؤال ففتح شفتيه و لم يقل شيئاً . فألححت عليه فبذل جهداً ظاهراً وقال كلمة واحدة :

— ريم !

فدهشت قليلا والتفت يمنة ويسرة فوجدت المأمور وسكرتير التحقيق شأنهما شأنى فى الاهتمام بالأمر والعجب له فنظرت فى وجه المصاب وقلت :

— وضح غرضك ياقمر !

فلم يجب .

— قصدك إن ريم هى نفسها ؟ ...

فلم يبد حراكا ...

— يا قمر ، يا علوان ، تكلم . لا بد أنك تتكلم . كلمة واحدة . الضارب ! من الضارب ؟

ولكننا نطلب المستحيل . فقد أغمض عينيه وقد تفصد جبينه عرقاً ، فجذبني الحكيمباشي من يدى بعيداً وقال :

— كفاية !

فنظرت إلى المأمور يأساً .

— كفاية ؟!

وهل ظفرنا نحن بشيء ؟ لقد كان موقفنا عند دخولنا أوضح منه الآن . إنها كلمة لفظها هذا الفم الجاف بعد جهد ، ليته لم يلفظها ...

* * *

١٤ أكتوبر :

تركت المأمور يذهب إلى شأنه . وعدت إلى مكتبى بدار النيابة وعلم المساعد بعودتى فحضر وهو كالمشتاق إلى رؤيتى . ولكنه عاتب على إغفالى إياه فى واقعة الليل ، فتنبهت إلى أنى حقيقة نسيته كل النسيان . إن اهتمامى باصطحاب المأمور تلك الليلة قد ألهانى ولا شك عن كل شىء آخر . ومع ذلك فهى حادثة تافهة لم يستفد منها غير بطن حضرة المأمور . و لم يقع ضررها إلا على جيب حضرة العمدة آه لهؤلاء العمد ! لشد ما أرثى لحالهم ! وظهر « فراش » المحكمة الحاج خميس . فطلبت إليه كوباً من الشاى الخفيف . والتفت إلى مساعدى فأقبل علىّ يحدثنى كمن يتحدث لمجرد الحديث ، وكأنى به جوعان كلام . إن الوحدة قد كادت تقتله أثناء غيبتى عنه . لقدسئم الريف . إنه لا يجد هنا قهوة واحدة يليق أن يدخلها مثله . اللهم إلا دكان ذلك البدال الرومى « طناشى » وضعت أمامه مائدتان من الخشب وكرسيان من القش . وقد أطلق عليه الأهالى اسم « الخمارة » وحتى هذا الرومى قد ارتدى جلبابا كجلباب الفلاحين فلم يعد شىء ينم على أنه « أفرنجى » غير لون العينين والشعر . أين يتنزه ؟ وأين يتفق وقته ؟ هذا الشاب الذى جاء من العاصمة منذ أيام حيث الأنوار والملاهى والضجيج ؟ إنه الآن لايكاد يرى غير مبان قليلة أكثرها متهدم . وغير هذه « الجحور » المسقفة بحطب القطن والذرة يأوى إليها الفلاحون . إنها فى لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماء وفضلات البهائم ، وفى تكدسها وتجمعها « كفوراً » و « عزباً » مبعثرة على بسيط المزارع ، لكأنها هى نفسها قطعان من الماشية مرسلة فى الغيطان . هذه القطعان من البيوت التى تعيش فى بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هى

كل ما تقع العين عليه فى هذه البقاع . ويزيد فى كربه هذا السكون يهبط على البلدة منذ الغروب . فلا يسمع بعدئذ غير خوار الجاموس ونبح الكلاب ونهيق الحمير ، ونحيب السواقى والشواديف والكبساسات ، وأصوات بعض الأعيرة النارية يطلقها فى جوف الليل الخفراء الخصوصيون أو النظاميون ، أحياناً إرهاباً للغير أو تشجيعاً لأنفسهم . إن مساعدى يريد دواء لهذا الضيق . وهل من دواء للريف غير الزواج أو السير المعوج أو المطالعة وتحرير المذكرات كما أفعل أنا كلما وجدت إلى ذلك سبيلا ؟ وفكر صاحبى فى الاختلاف إلى النادى ، إنه لا يعلم شيئاً عن نادى هذا المركز . إنه اسم يطلق على حجرة فى منزل عتيق يصعد إليها بسلم من خشب . وهى تضاء بمصباح غازى أى « كلوب » وهذا « الكلوب » هو وحده الشيء الجديد بالاحترام فى الحجرة . أما أهل النادى فهم بالطبع رجال الإدارة وطبيب المركز وبعض الأعيان والموظفين وصاحب الأجزاخانة . ولا يشغل هؤلاء فى ذلك المكان غير لعب الورق و « الطاولة » واغتياب الناس فهل يليق بممثل النائب العام فى هذا المركز أن يندس فى هذه الزمرة و لقد قلت لمساعدى إلى « شخصيا » أفضل أن يكون عضو النيابة بعيداً عن كل هذا إذا كان يريد أن يبجله الجميع . وأنا لن أنسى ذلك اليوم الذى دعانى فيه رجال الإدارة إلى حفلة عشاء فى ذلك النادى مع القاضى المقيم تكريماً لزميل لهم منقول . ولم أستطع الاعتذار فذهبت . وإذا زجاجات الوسكى على المائدة بجوار الطعام ، وقد ملأوا كأسى وكأس القاضى ، ولم يفطن القاضى لنفسه فشرب وأكثر ، وجعل يثرثر ويضحك حيث لا موضع للكلام والضحك وعندئذ مال علىَّ المأمور وقد سكر هو أيضاً وألقى فى أذنى ضاحكا « البك القاضى فقد وقاره ! » فلم أرد أن أسمع أكثر

من ذلك . فانسللت منصرفاً إلى بيتى فى هدوء دون أن يشعر بى هؤلاء المتخبطون فى كؤوسهم . منذ ذلك اليوم وأنا لا أضع قدما فى هذا النادى . واقتنع مساعدى بكلامى ، وأردت أن أزيده بيانا ليزداد حرصا ، ولكن الحاج خميس دخل حاملا كوبا لم يكد يقع نظرى عليه حتى صحت .

ــ ما تسقينى أحسن حبر « كوبية » وتخلص !

ــ صلّ على النبى يا سيدنا البك ... ! أنا بقى لى عشرين سنة فراش محكمة ، وورد علىّ أصناف الأهالى والموظفين تصدق بالله ... ! ما ينفع فى المحاكم إلا شاى مر طعم « الفورنيه » ؟

فترددت قليلا ثم لم أجد مناصاً وقلت :

ــ شاى المحاكم وشغل المحاكم كله مر والسلام ، هات !

ووضع الرجل الكوب الزجاجى أمامى وانصرف . وما كدت أرشف رشفة حتى فتح الباب ودخل عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائىّ بروحه الذى لا أستخف له ظلا وقال :

ــ عندنا من نوع التلبس أربع قضايا .

ــ هات !

فذهب وأرسل إلى العسكرى القادم « بالمحاضر » والمقبوض عليهم . وأخذنا نطالع الأوراق قبل أن نستدعى أمامنا المتهمين . وجعلت من نصيبى ثلاث قضايا واستصغرت ملفاً ألقيت عليه نظره سريعة وأعطيته مساعدى وأنا أقول له : « سرقة كوز ذرة ، لن نعثر لك على أسهل من مثل هذه للسرقة . سل هذا المخلوق فستجده معترفاً فى أمان الله ! » . وبدا الاضطراب قليلا على المساعد ، فهذه أول مرة يستجوب فيها متهماً .

وتناول من يدى المحضر . وجعل يقرؤه كلمة كلمة . ويعيد قراءة هـذه « القسائم » التى لم تزد على الخمس . وفرغت أنا من أمر نصيبى البالغ أضعاف ما عنده وهو ما زال منهمكاً فى إعداد ملخصات وافيـة ، وملخصات للملخصات ، وأسئلة معدة إعداداً كأنها قنابل ستلقى فى صدر سارق « كوز الذرة » . فكتمت ضحكى ، أنا أيضاً فى مستهل حياتى القضائية كنت أفعل فعله . ولقد قسا علىَّ القدر أشد مما قسا على هذا الشاب ، فنكبنى بقضية تزوير معقـدة كانت هى أول عهـدى بالتحقيق . ولست أنسى اضطرابى وقتئذ وقد مثل أمامى المتهم المزور بطول وذلاقة لسانه واعتياده المثول أمام القضاة ؛ فذهبت الأسئلة المجهزة من رأسى و لم أدر ما أقول ، وانتظر الرجل واقفاً فى هدوء أن أفتح فمى أو يفتح الله علىَّ بسؤال ، وتصبب منى شبه عرق وأنا أرى المتهم أحسن منى حالا وأربط جأشاً وأقوى امتلاكا لأمره ، وخيل إلىَّ أنه يسخر منى فى دخيلة نفسه . وكان كاتب التحقيق رجلا قديما ذا مران طويل ، صادف فى حياته ولاشك عشرات من المساعدين الجدد أمثالى . عرف ما بى فأسرع يعاوننى ويلقننى ما ينبغى أن أبدأ به من أسئلة وأنا أتقبل منه المعاونة بأنفة وكبرياء دون أن أظهر حاجتى إلى تدخله . وأمثال هذا السكرتير الهرم من ذوى الحق المغموط والفضل المجهول مثيرون ، وقد سمعت أحدهم يقول لى مشيراً إلى بعض من كبار رجـال الـقضاء : « علمناهم الشغل ومشوا وارتفعوا وبقوا قضاة ومستشارين ، والواحد منا واقف فى مطرحه لا يكبر ولا يصغر ، زى جحش السبخ » تذكرت كل هذا وأنا أنظر إلى وجه مساعدى . ورأيت أن أتعهد خطاه الأولى بنفسى ، فطلبت إليه أن ينحى جانبا هذه الملخصات ، وأن يضغط

بأصبعه على الجرس ففعل ، وظهر الحاجب بالباب فأمرته بإحضار المتهم الأول ، فدخل فلاح كهل قد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبعة مسن ؛ وقلت للمساعد أن يوجه ما يحضره من أسئلة ولا يخاف ، وأنا أعينه إذا توقف ، فاحمر وجه الشاب وتردد ، ثم تجلد ونظر إلى المتهم وسأله :

— أنت سرقت كوز الذرة ؟

فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح :

— من جوعى !

فنظر المساعد إلىَّ وقال فى لهجة الانتصار :

— « اعترَف المتهم بالسرقة » .

فقال الرجل فى بساطة :

— ومَن قال إنى ناكر ، أنا صحيح مِن جوعى نزلت فى غيط من الغيطان سحبت لى كوزا ...

ووقف القلم فى يد المساعد ، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك ، والْتفت إلىَّ يستنجدنى ، فنظرت إلى الرجل سائلا :

— سين ، يا رجل لماذا لا تشتغل ؟

— جيم ، يا حضرة البك هات لى الشغل وعيب علىَّ إن كنت أتأخر . لكن الفقير منا يوما يلقى ، وعَشرة ما يلقى غير الجوع .

— انت فى نظر القانون متهم بالسرقة .

— القانون يا جناب البك على عيننا وراسنا . لكن برده القانون عنده نظر ويعرف إنى لحم ودم ومطلوب لى أكل .

— لك ضامن يضمنك ؟

ـــ أنا واحد على باب الله .

ـــ تدفع كفالة ؟

ـــ كنت أكلت بها .

ـــ إذا دفعت يا رجل خمسين قرشا ضمان مالى يُفرَج عنك فوراً .

ـــ خمسين قرش ! وحياة راسك أنا ما وقعت عينى على صنف النقديّة من مدة شهرين . التعريفة نسيت شكله . ما اعرف إن كان لحد الساعة (مخروم) من وسطه والا سدوه .

فنظرت إلى مساعدى وأمليت عليه نَص القرار :

ـــ « يحبس المتهم احتياطياً أربعة أيام ويجدد له ويعمل له فيش وتشبيه » اسحبه يا عسكرى !

فقبَّل الرجل كفه وجهاً وظهراً حامداً ربه :

ـــ وماله . الحبس حلو . نلقى فيه على الأقل لقمة مضمونة . السلام عليكم !

وخرج الرجل يدب وقد وضع فى معصمَيْه القيد . واطمأن مساعدى واستراح باله بذهاب متهمه ، وطلبت القضية التالية . فظهر العسكرى ومعه آخر وفتحا باب مكتبى على مصراعيه ، وجذب داخل الحجرة أكثر من ثلاثين رجلا وامرأة وولدا قد شُدُّوا فى حبال الليف ، إذ لم يجدوا فى المركز لكل هذا العدد قيوداً حديدية . فما تمالكت أن صحت لمنظرهم :

ـــ الله أكبر ! مواشى طالعة سوق السبت ؟ حِل الحبال يا عسكرى !

فقال الحارس وهو يحل بأسنانه عقدة حبل :

ـــ فتشنا يا سعادة البك بيوتهم وجدنا فيها الممنوعات . وباقى غيرهم

من أهل الناحية تحت التفتيش والقبض بمعرفة حضرة الملاحظ وأورطة الهجانة !

فأدرت بصرى فى هؤلاء الآدميين . واستعدْت فى مخيلتى ما قرأته الساعة عن تهمتهم فى الأوراق التى أمامى وقلت :

— ممنوعات !

فاستدرك الحارس :

— الملبوسات يا فندم .

نعم . إن ما قرأت الساعة هو أن سيارة كبيرة كانت تحمل أكياسا ضخمة ، مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفية من معاطف وسُتَر وسراويل ، وكذلك أنواع من الأحذية الجلدية لحساب متجر فى القاهرة من المتاجر الشهيرة ، وكانت تجتاز ليلا بكل هذا جسر الترعة المحاذية لدائر الناحية ، فسقط منها فى الماء كيس كبير مفعم بألوان الملابس ، ولبث الكيس فى أعماق الترعة حتى انخفض منسوبها وانحسر الماء عن البضاعة فهرعت تلك البلدة العارية إلى الكنز الذى لا يشابه كل الكنوز وتسابقت الأيدى إلى الكيس الراقد فى الطين تجذب من بطنه ما تصل إليه ، فإن كان سروالا من الصوف لبس فى الحال فوق الجلباب الأزرق وإن كان معطفا من الجوخ دخل فيه الرجل (بحرامه) وإن كان حذاء لامعاً وضع فى الأقدام بغير جوارب . ومضت البلدة تجرى فى الطرقات فرحة مهللة : « الكساوى فى البحر ، الكساوى فى البحر ... » ، إلى أن رآهم رجال الحفظ واستكثروا عليهم النعمة وعدُّوها بالنسبة لهم « ممنوعات » واستغربوا أمرها واستكشفوا سرها ...

ورأيت أول الأمر أن أسألهم جملة ، علّنى أظفر منهم باعتراف ييسر علىَّ مهمتى . فألقيت عليهم نظرة شاملة :

— سرقتم الملابس ؟

فأجابنى من بينهم صوت عميق رزين :

— أبداً والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة ؛ البحر رمى علينا الكيس وكل واحد منا طال نصيبه .

فقلت للرجل من فورى :

— نصيبه ؟ هو الكيس مِلك البحر والّا له أصحاب خواجات !

فأجاب الرجل فى صوته العميق الهادئ :

— راح من بالنا أن له أصحاب يا حضرة البك ربنا يعلّى مراتبك ارأف بحال الفلاحين المساكين !

— المسألة مسألة قانون . والقانون صريح : إن كل من وجد شيئاً مملوكا للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامله معاملة السارق . فهمتم ؟

— فهمنا يا حضرة البك ، لكن ... بقى ... الكساوى كانت قدام نظرنا ورماها البحر علينا والواحد منا من غير مؤاخذة عريان ..

— أنت يا رجل فاكر الدنيا فوضى ، والّا فيه قانون وحكومة !

ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال :

— بقى هى الحكومة لا منها ولا كفاية شرها ؟! لا كستنا ولا تركتنا ننكسى !

— أنا مضطر إلى أن أحبسكم .

— يا جناب البك . أنتم فتشتم دورنا وسحبتم الكساوى منا ؛ والعيال

الفرحانة عادت تبكى ، ورجعنا لأصلنا لا لنا ولا علينا . يبقى الحبس له لزوم ؟!

— أفرج عنكم بضمان مالى .

— مالى ؟! الفلاحين عرايا يا حضرة النايب !

— تفضلوا من غير مطرود ! دماغي وجعنى والمناقشة مع أمثالكم ضياع وقت . القانون صريح وأنا مقيَّد بنصوص أشد من الحبال الموضوعة فى أيديكم . المسألة عندى قبل كل شيء مسألة قانون . « يحبس المتهمون كلهم احتياطيا أربعة أيام ويجدد لهم ويعمل لهم فيش وتشبيه » اسحبهم يا عسكرى !

فخرجوا جميعا فى صف طويل وفى ذيلهم رجل يقول هامسا :

— يحبسونا لأن ربنا كسانا !

وهدأ المكان . ولكن رائحة كريهة انتشرت فى الحجرة ، فناديت الحاجب وأمرته بفتح النوافذ . ففعل وهو يلعن بصوت خافت هذا الجاموس الأبيض الذى لا ينبغى إدخاله حجرات الحكومة . وحانت منى التفاتة إلى مساعدى فوجدته مطرقاً مفكراً . فداخلنى حب استطلاع أن أعرف ما بنفسه الآن . أتراه قد تأثر لشيء ! أترى دقة الحس ورقة الشعور — التى جاء بها كما جئنا كلنا فى مبدأ عملنا الحكومى بالريف — ما زالت حية أم أنها فى طريق الموت .. ولكن طرقة عصا شديدة ضربت الباب عرفت فيها ضربة المأمور . ودخل صاحبنا يلهث ويصيح :

— البنت ريم ...

— ما لها ؟!

قلتها رغما عنى فى لهفة . فاستراح المأمور على كرسى وأنا أنتظر

الكلام من فمه بصبر نافد . غير أنه نظر إلى الحاجب بالباب :

ـــ اسقنى وحياة عينيك !

وأخرج منديله الحرير الصناعى من كمه ومسح وجهه ورأسه وأنا على أجر من الجمر . وأخيرا ألتفت إلىّ وقال :

ـــ اختفت !

فنظرت إليه مليًّا :

ـــ تتكلم جد !

ـــ هربت مع الشيخ كلب !

ـــ الشيخ عصفور ؟!

ـــ نهاره أسود !

ـــ والعمل ؟

ـــ أمرت فرقة الهجانة تقوم فى الحال تقتفى الأثر فى جميع الطرق الزراعية ...

وجلسنا فى صمت . وقد شرد فكر كل منا ...

١٥ أكتوبر ...

لم يمكث المأمور عندى طويلا ، فقد ذهب سريعا وانقطعت عنى أخباره ؛ وطلبته كثيرا بالتليفون فى المركز فلم يدرِ أحد أين مقره .-كل ما عرفوه عنه أنه خرج فى « البوكس فورد » مع المعاون ولم يعد ، وانتظرته طول نهارى لأعرف منه .. ؟؟ ولكن النهار انقضى وغربت الشمس وعِيل صبرى ، فمشيت بنفسى إلى المركز فلم أفز بطائل ، وقال لى قائل : لعله عرج على النادى فهذا ميعاد جلوسه فيه . فما ترددت ، وتوجهت إلى النادى فاستقبلنى أعضاؤه دهشين أول الأمر ، ثم هرعوا يقدمون إلىَّ الكرسى « السليم » الوحيد فى تلك الحجرة زيادة فى الاحتفال بى . فسألت عن المأمور ؛ فقالوا : إنهم لم يروه وأنهم يعجبون لغيابه عن النادى حتى هذه الساعة . فلما علموا منى أنه خرج من الصباح مع المعاون فى « البوكس » ولم يعد ، صاحوا جميعا من فم واحد :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله !

وصاح صوت من بينهم :

ـــ ضعنا وضاعت فلوسنا والعوض على الله !

ولم أفطن إلى مرادهم فى مبدأأمرى ، ولكن التفاتة حانت منى إلى المائدة والورق المطروح عليها فى انتظار اللاعبين . ففهمت للفور وتذكرت ما قيل لى من أن المأمور لم يعرف الخسارة قط فى هذا النادى ، وأنه اعتاد فى أوائل كل شهر أن يربح كل مرتبات الموظفين ثم يظل طول الشهر يقرضهم ما يحتاجون إليه للأكل والمعاش حتى لا يموتوا جوعا إلى أن يقبضوا ، فيلاعبهم من جديد ويأخذ مرتباتهم الجديدة ويقرضهم ما يعيشون به طول الشهر ، وهكذا دواليك . وقد اعتادوا هذه الحياة ورضوا بها ، وهم يعزون

أنفسهم بقولهم : سواء أكانت النقود فى جيبنا أم فى جيب حضرة المأمور فالنتيجة واحدة ... » شىء واحد يقلقهم ويخيفهم أشد الخوف ، هو خروج المأمور بأموال البلدة « لملاعبة » مركز آخر . فالمأمور يضجر أحيانا من ملاعبة هؤلاء المفلسين وقد تجردوا ، فينتخب تارة نفرا من خيرة اللاعبين وينتقلون لمنازلة المركز المجاور كما تنتقل فرق كرة القدم ... وتارة يخف المأمور بمفرده أو مع المعاون إلى أقرب بلدة يلعب « دورين » ويرجع ، وتارة يستقبلون فى ناديهم « منتخبا » قادما من بلاد أخرى . هنا فى مثل هذه المقارعات الحامية الوطيس بين بلدة وبلدة يتعرض للخطر جيب المأمور ، أعنى مرتبات المركز ...

على أنى لم ألبث أن أدخلت الاطمئنان على قلوبهم بقولى لهم : إن المأمور قد ذهب فى غالب الظن لعمل يتعلق بقضية تشغل بالنا . فهدأوا وجلسوا لحظة ساكنين أدبا واحتشاما ، ثم أخذوا يتحدثون ويثرثرون قليلا أثناء شرب القهوة ، إلى أن قال أحدهم فى نبرة الترحيب :

— ربنا عوضنا خير بتشريف البك النايب ، لأن حضرة القاضى انقطع عن النادى من زمن ... بسبب سوء التفاهم ! ...

فنظرت إلى المتكلم وقد بدا فى عينى المتسائلة ما دعاه إلى الاسترسال .

أى نعم ، سوء التفاهم بينه وبين البك المأمور . وأمعن فى الثرثرة فقال :

— المسألة أصلها خلاف السيدات مع بعض . الست حرم القاضى واقعة مع الست حرم المأمور .

فأطرقت صامتا ، وظن الحاضرون أن بى رغبة إلى الإصغاء فانطلق أحدهم يقول :

— آخر أخبار أنهم طلعوا لبعض فوق الأسطح ونزلوا فى بعض « ردح » من النوع « النضيف » امرأة المأمور إغاظة فى صاحبتها راحت لبست سترة زوجها الرسمية « بالتاج والضبورة » وغطت رأسها من غير مؤاخذة بالطرحة أم « ترتر » وقالت لها بالصوت العالى : « أنتم حواليكم إلا قِلة القيمة لا يمشى وراكم إلا حاجب « ربابكيا » نُص عُمْر مكسَّر صابغ شعره . لكن المركز كله بالخفر والعسكر تحت أمرنا ، يضرب لنا سلام » . قامت امرأة القاضى نزلت ولبست لها الوسام الأحمر عهدة الحكومة فوق الفستان البمبى المسخسخ وطلعت تقول لها : « قطع لسانك وليَّة سفيهة ! أنتم صحيح ما لكم إمارة إلا على غفيرين مغفلين ، لكن مَن فى البلد كلها يقدر يحبس ويشنق ويقول : حكَمَت المحكمة غيرنا ؟ » .

لقد أحسست شيئا من الحرج فى استماعى إلى هذا الكلام ، فما إن فرغت من شرب القهوة حتى وضعت الفنجان على المائدة فى هدوء ونهضت فى الحال مسلِّماً مودِّعاً وانصرفت .

سرت فى الطريق إلى منزلى أفكر . ولقد تمهلت فى خطاى ، إذ لم أجد فى نفسى رغبة إلى الاحتباس بين جدران أربعة مع أكداس من الشكاوى المتأخرة أضع أنفى فى تراب ملفاتها . وإن رأسى بعدُ لمشغول بغياب المأمور ؛ أتراه قد وجدها ؟ .. أين ذهب بها إذن ؟ والشيخ عصفور ماذا جرى له ؟ العجيب فى الأمر أن يستطيع هذا العصفور أن يختطف هذه الزنبقة ونحن عنه غافلون ! الحقيقة أننا لم نفطن إليه ، لقد استطاع أن يختطفها من يد المأمور فى خفة ومهارة . نعم ، من يد حضرة المأمور لا من يدى أنا . ولكن الأعجبَ من هذا أن تطيعه الفتاة وتذهب معه راضية . فهو من غير شك لم يُكرهها ولم يحملها قوة واقتدارا ، ما سر هذا التأثير

وهذا النفوذ العجيب وهو لا يكاد يعرفها ولم يكن بينهما لقاء طويل ؟ أتراه قد أغراها بالهرب ؟ ولكن ما الذى يدعوها إلى الهرب ؟ أهى مجرمة ؟ أهذا الجمال الرائع يجرم ! أم نحن المجرمون إذ نظن السوء بالجمال ؟ إن من العسير على نفسى أن أتصور الجمال غير مقترن بالفضيلة . الجمال الحق والفضيلة الحقة شيء واحد . ولكن المصاب قمر الدولة عندما سئل عن الضارب فاه بكلمة واحدة ما زال جرسها الباهت يرن فى أذنى : « ريم » ! ولكن ما بال الفتاة صرخت وذهلت إذ علمت بالجناية أول مرة ؟ أهو تصنُّع وتمثيل ؟ لقد خلعت آهتُها قلبى خلعاً فى تلك الليلة . وما أشك فى أن المأمور ، وهو على الأقل ذو خبرة بالقرويات ، قد تأثر مثلما تأثرت . فإن كان مكر مثل هذه البنية الرقيقة يجوز على أمثالنا فأحرى بنا أن نوضَع فى مرابط البقر لا أن توضع أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف أسرارها . وألهتنى هذه الخواطر وحملتنى قدماىَ من دون قصد إلى المستشفى ومررت ببابه الكبير ووقعت عينى اللاهية على ذلك المنظر المعتاد من الأهالى والنساء والصبيان الجالسين القرفصاء فلم أحفل بهم . ولكنى لم أكد أغادر هذا الجمع حتى وقفت دهشا . فلقد لمحت تحت الجدار على بعد قصبة من الناس الشيخ عصفور جالسا إلى الأرض وهو مطرق ينكت التراب بطرف عوده وبجواره الفتاة وقد أسندت رأسها إلى الحائط تعبا وإعياء أو كآبة وحزنا . فهمت كل شيء . إنها جاءت المستشفى تسأل عن حال المريض . وإنها اتخذت من الشيخ الأخضر دليلا وصاحبا ومعينا ، وكان ينبغى لذكائنا أن يتجه فى بحثه إلى هذه الجهة القريبة . ولكن ما العمل الآن ؟ إنى بمفردى ؛ ولا سلطة لى بغير رجال الحفظ أُلقى إليهم الأوامر . لا بد إذن من الذهاب من فورى إلى دار المركز

لأبعث أحد العساكر يأتى بهما . وأسرعت فى السير قبل أن يعلما برؤيتى لهما فيهربا خوفا منى وابتعدت عن المكان وأنا أقول فى نفسى : لا شك أن الشيخ عصفور يعلم الآن كل أسرار القضية . أو أنه على الأقل قد اطلع على سر الفتاة وغاص بعينيه البراقتين فى بحار نفسها العميقة المظلمة . ولكن هل يفضى هذا الشيخ إلينا بشىء ؟ إنه هو نفسه سر مغلق ، ولست أدرى أهو حقا أبله أم خلف هذا الوجه الساذج ... ؟؟ وكنت قد بلغت المركز . ورأيت ببابه « البوكس فورد » فعلمت أن المأمور قد عاد ، فأسرعت واقتحمت عليه حجرته فألفيته ملقى على « الكنبة » وقد خلع طربوشه وأمسك القُلة الفخار يجرع منها والعرق يتصبب من جبينه فلم يكد يرانى حتى صاح :

ـــ المسألة وحياتك فيها شغل سحر ! لا بد أن الشيخ الكلب سحر البنت . تصور أننا من الصبح لغاية ساعة تاريخه ما تركنا فى دايرة المركز غيط ذرة ولا زراعة قصب ولا ساقية ولا طاحونة ولا كَفْر ولا دوَّار ولا ترعة ولا أرض ولا سما ولا طريق زراعى ولا جهنم حمرا إلا قلبناها وفتشناها شبر شبر . لو كانوا انقلبوا طير على الشجر أو سمك فى البحر كنا وجدناهم . لكن المصيبة أنهم ...

فما تمالكت أن قاطعته :

ـــ المصيبة أنهم على بُعد خطوة من هنا يا حضرة المأمور !!

فوضع المأمور « القلة » على الأرض ونظر إلىَّ فاغرا فاه :

ـــ إيه ؟

فقلت فى شىء من الحدة :

— طير إيه وسمك إيه !! الرجل والبنت قدام باب المستشفى من ساعتها .

— المستشفى الأميرى ؟!

— قم يا شيخ قل لواحد عسكرى يروح يناديهم من هناك ، بلاش أمور ...

ولم أتم بقية عبارتى ، فقد نهض المأمور فرحا قبل أن يسمع منى ، وصاح بصوت جلجل فى صحن المركز :

— يا شاويش عبد النبى !

فجاء من ناحية الاسطبلات رجل عملاق فى قميص وسراويل بيضاء ورفع يده بالسلام وقال :

— أفندم سعادة البك ؟

— قم حالا مع نفرين للمستشفى الأميرى ومعكم قيد حديد .

فتردد الرجل وقال مقاطعا :

— « أودة التبن » مفتوحة يا سعادة البك والأنفار جارين العليق والفرش للخيل ...

فصاح فيه المأمور :

— يا حصان نفذ الأوامر إن شا الله عن الخيل ما باتوا فى ليلتهم . قلت لك قم فى الحال .

— حاضر يا افندم !

وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع . وانصرفت إلى مكتبى بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بى مع المقبوض عليهما . فأنا لا أحب مطلقا التحقيق فى دار المركز وهى ليست دارى . فرَبُّ المركز هو المأمور .

ولا أرضى لنفسي أن أكون فى كنفه أثناء عملى . خصوصا فى هذه القضية وأمام هذه البنية . وذهبت على عَجَل وأرسلت من يستدعى كاتب التحقيق . ولم يمض قليل حتى كنت فى حجرتى جالسا إلى مكتبى أطيل النظر إلى الباب نافد الصبر منتظرا قدوم الفتاة كأنه موعد لقاء .

وسمعت نقرا على باب الحجرة . ودخل المأمور يسألنى للفور عن المطلوبين فأجبت أنى لم أرَ أحدا بعد . فجلس وهو يقول إنه أرسل مَن يأتى بهما . وجعل ينظر هو أيضا إلى الباب ويفتل شاربيه . وجاء كاتبى بأوراقه ونشرها أمامى . واستعد كل منا . وإذا بجلبة ترتفع فى الردهة وصوت أقدام ثقيلة وصلصلة حديد ، وطرق الباب علينا ، ثم فتح وألقى بيننا الشيخ عصفور وحده مكبل اليدين وخلفه الباشجويش يحمل له عوده الطويل فوقع فى نفسى قلق . وشعرت بوقع مثله فى نفس المأمور . فقد ابتدر.. الباشجاويش صائحا :

— والبنت ؟!

— وجدنا الرجل وحده فقبضنا عليه يا فندم .

— وحده ؟!!

قالها المأمورُ كما قلتها أنا فى نفس الوقت ، وقد اختلط فى نفسينا الأسف بالعجب والغضب . وخرج المأمور عن طوره فنهض وصرخ فى و‍ الشيخ عصفور قائلا :

— البنت ؟!

فلم يبد الرجل حراكا . وأجاب فى هدوء رصين :

— بنت مين !

فنظر إليه المأمور نظرة شزراء وقال :

— إنت يا رجل شارب حشيش ؟! شغل الحشيش أنا أفهمه ، طيب !!

وأراد أن يلكمه بقبضته القوية فمنعته من ذلك ، وأمرت الشيخ أن يدنوَ منى قدنا فسألته فى رفق :

— ريم كانت معك !

فأجابنى الرجل من غير تردد :

— أبدا .

فأدركت أن عين الرجل البراقة قد لمحتنى عند مرورى بباب المستشفى ، وفهم بذكائه ما سيكون فأخفى الفتاة فى الحال ، أو أن الأمر غير ذلك وأن عينى هى التى خانتنى فلم تكن ريم إلى جانبه ، وأن خيالى السابح فى جو هذه الفتاة قد ألقى صورتها وأثوابها على امرأة أخرى من الفلاحات المنتظرات بالباب كل هذا جائز ، ولكن أين ذهبت ريم ؟ ولماذا أتهم بصرى ولا أتهم هذا الشيخ المخاتل ؟ ومن هو أولا هذا الرجل ؟ وصحت فيه من فورى قائلا :

— تعال يا رجل أنت !

— محسوبك .

— من أنت ؟

فنظر إلىَّ الرجل نظرة مَن لم يفهم السؤال . فألقيت عليه العبارة من جديد فى شدة وقوة ، فقال :

— أنا ... أنا عصفور ، ألقط الحب فوق التراب ، وأعبد الرب تحت التراب !

— تكلم جد يا رجل . اسمك ؟

— عصفور .

وأشار إلى يديه ، وفيهما القيود وصاح :

ـــ أطلقونى ! مَن حب النبى يطلقنى ..

فأمرت العسكر بفك القيد من يديه ؛ وسألته فى صرامة :

ـــ صنعتك ؟

فتردد الشيخ قليلا وسكت لحظة ، ثم لفظ آهة من أعماق قلبه ورجع برأسه إلى الوراء وجمدت عيناه كأنهما تنظران إلى شيء لا وجود له فى عالم الحس والحقيقة ورفع عقيرته بالغناء :

« أنا كنت صياد
وصيد السمك غِيَّه
نزلت بحر السمك
أصطاد لى بنِّيَّه
وعجبنى شكل السمك
فى البحر حواليَّه
واحدة بياض شفتشى
والتانية بُلطيَّه ... »

فقاطعه المأمور صائحا :

ـــ مفهوم ، مفهوم ! واللى غرقت فى الريَّاح مِن سنتين كانت البياض والَّا البُلطية ؟!

فلم يجبه الشيخ ولم يلتفت إليه ومضى يغنى :

« واحدة بياض شفتشى
والتانية بُلطيه

والثالثة من بدعها
سحرت مراكبيه »

وتنهد فى العبارة الأخيرة واتخذ صوته فيها نبرة عجيبة ذات معنى ارتجفت له قليلا ، ونظرت من طرف خفى إلى المأمور فرأيته قد اختلجت عيناه ، ولكنه تجلد وتحامل وقال للرجل :

— ومن هم المراكبية ؟!

فأطرق الرجل وصمت صمتا عميقا . ولست أدرى أهو أيضا خيال منى ما اعترانى من شعور بأن هذا الشيخ قد فهم ... وأنه قد أدرك ما بنا منذ اللحظة الأولى ...

١٦ أكتوبر ...

لم نستطع أن نعرف شيئا من الشيخ عصفور ، ولم نستطع كذلك أن نقبض عليه ، فهو لم يرتكب أمراً يقع تحت نصوص القانون فأطلقناه ، وخطر ببالنا أن ندفع فى أثره أحد المخبرين عسى أن نستكشف مخبأ الفتاة ... ولكن أين هو المخبر السرى الذى يخفَى على الشيخ عصفور ؟ إنه يعرف كل رجال الحفظ معرفة أكيدة ، وهو الذى قام معهم فى الوقائع مئات المرات ، وسهر معهم وأكل وشرب وغنّى وأنشد ، ودلهم على مخابئ الأسلحة . واقتفى معهم آثار المجرمين . إنه يكاد يحسب من أسرة « البوليس » . تركناه ينصرف فى سلام . وقد اكتفى المأمور الحانق بأن شيعه إلى الباب بصفعة على قفاه شفى بها غليله ، وانصرف بعد ذلك كلٌّ منا إلى شأنه : المأمور إلى ناديه ، وأنا إلى منزلى حيث خلعت ملابسى وخلوت إلى نفسى ، وأخرجت كراسة يومياتى ألقى فيها هذا الكلام الذى لا أجد مَن أُفضى به إليه فى هذا الريف . إن القلم لَنعمة لأمثالنا ممن كتِبَت عليهم الوحدة ، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحيانا من تلقاء نفسه كالطائر المرح ، وأحيانا يحرن ويثب على قدميه ويأبَى أن يتقدّم كأن فى طريقه أفعى رافعة الرأس ، وهو الساعة يهتز فى يدى ويرقص ولا يطيعنى كأن شيئا يخيفه أو يقصيه عن مروج الأحلام،فنظرت إلى خزانة ملابسى الخشبية فإذا فأر أسود على رأسها واقفا يقرض الخشب بأسنانه ، فجعلت أنظر إليه علّه يذهب ، فلم يذهب ، ومضت ساعة وهو مكانه وأنا فى مكانى ، كلانا له عمل من غير شك ، وهو فيما يبدو لى لا يحفل بوجودى ، ولكنى أنا أحفل بوجوده . فزيارته فى هذه الساعة شغلتنى عن نفسى ، وأخذت ألاحظه وهو يمسح رأسه وفمه بيديه الصغيرتين . وجلت أفكر فى هذا المخلوق الذى لا

يفكر فيَّ ، وهنا كل الفرق بيني وبينه وتركت هذا النجار الصغير ذا المنشار الدقيق ، وحملت كتابي إلى سريري وسدلت « الناموسية » عليَّ وأحكمت ربط أطرافها حتى آمن فضول هذا الزائر إذا حدثته نفسه بمداعبة قدمي العارية . ولم أجد فائدة من « المصايد » فإنها تكلفني عناء إعدادها وترقب نتيجتها . وليس أشق على النفس ولا أدعى إلى إضاعة الوقت من انتظار النتيجة ، إذا كانت الفريسة حاضرة تحاورنا وتداورنا ولا تقع حتى تقع معها نفوسنا.وفوق ذلك فلكَم قنصنا من الفيران ، ومع ذلك لم تنقطع زيارتها ، فلنتركها إذن تجيء وتروح ، ولنحمِّلها هذا الجميل ؛ ولنحرص نحن على أنفسنا وحوائجنا . وأنا — ولله الحمد — ليس لي خوائج يخشى عليها ، غير هذا الأثاث الرخيص من الخشب الأبيض قد حطمته كثرة التنقلات من بلد إلى بلد . فماذا يضيره أن تعبث به أسنان صغيرة ؟ ونمت في تلك الليلة بعد العشاء بقليل فإن في اليوم التالي جلسة القاضي السريع ، وقد كلفت مساعدي بحضورها على أن أحضرها معه إلى جواره كي أُمرِّنه على نظام الجلسات ، وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدي في غرفة المداولة متأبطا مظروفا به وسامه وهو في انتظار القاضي . ولم يلبث القاضي أن جاء في القطار القادم من القاهرة وخلفه شعبان الحاجب . وهما يشتدان في الخطى والقاضي يخرج من جيبه نقودا يناولها للحاجب ويقول له :

— اللحم يكون فلاحي من قشرة بيت اللوح ! واصحَ للبيض يا شعبان أفندي ؛ والزبدة والجبنة على عهدتك . أوضع الحاجة في السلال « كويس »وانتظرني بها على المحطة في قطر ١١ كالمعتاد ، اطلع أنت السوق والأفندي المحضر يقوم بدلك بالعمل !

وانصرف الحاجب سريعا ، ودخل علينا القاضى وسلم فى عَجَلة قائلا :

ــ أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

ــ يا افندى يا محضر ! حضر الجلسة ... الجلسة .

وألقى بمعطفه التيل الأبيض السفرى على كرسى . وأخرج وسامه الأحمر من محفظته ولبسه فى الحال . وأقبل الفراش بالقهوة فشربها القاضى وهو واقف فى جرعتين وهجم على قاعة الجلسة ، ونحن فى أعقابه ، وصاح المحضر :

ــ محكمة !!

ونظر القاضى فى « الرول » وقال :

ــ قضايا المخالفات . محمد عبد الرحيم الدنف ، لم ينقِّ دودة القطن .. غيابى خمسين قرش . تهامى السيد عنيبة ... لم يقدم ابنه للتطعيم .. غيابى خمسين ... محمود محمد قنديل ، أحرز بندقية بدون رخصة .. غيابى خمسين والمصادرة . غيابى خمسين .. غيابى خمسين ..

وانطلق القاضى فى الأحكام كالسهم لا يوقفه شىء ، والمحضر ينادى مرة واحدة حتى يلاحق القاضى ؛ فمن لم يسمع النداء عُدَّ غائباً وحُكم عليه غيابيا . ومن سمع بالمصادفة فحضر يجرى ابتدره القاضى :

ــ أنت يا رجل تركت غنمك ترعى فى زراعة جارك ؟.

ــ أصل الحكاية يا سعادة البك ...

ــ ما عندناش وقت لسماع حكايات ... حضورى خمسين . غيره . عبد الرحمن إبراهيم أبو أحمد ... إلخ إلخ ..

وانتهت المخالفات فى مثل لمح البصر ، وجاء دور قضايا الجنح وفيها سماع شهود ومرافعة محامين وهى تحتاج إلى شىء من الأناة . فأخرج القاضى ساعته ووضعها أمامه ، وصاح فى المحضر :

ــ بسرعة القضية الأولى ...

فنادى المحضر :

ــ سالم عبد المجيد شقرف ...

فنظر القاضى فى الرول وعرف التهمة والتفت إلى المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة باب الجلسة وصاح فيه :

ــ ضربت الحرمة ؟ كلمة واحدة ... قل مِن عندك !

ــ يا سعادة البك فيه راجل يضرب حُرْمَة !!

ــ ممنوع الفلسفة . كلمة ورد غطاها . ضربت ؟ نعم أو لا ؟

ــ لأ .

فصاح القاضى فى المحضر :

ــ نادِ الشاكية .

فحضرت الحرمة المضروبة تتعثر فى « ملَسها » الأسود الطويل ، فلم ينتظر القاضى حتى تدخل الجلسة ، وصرخ فيها :

ــ ضربك ؟

ــ أصل يا سيدى القاضى ربنا يخليك ...

ــ مفيش أصل . ضرب والّا لأ ؟ هى كلمة لا غير .

ــ ضرب .

ــ كفاية . واستغنت المحكمة عن بقية الشهود .. كلامك يا متهم .

فتنحنح المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضى مشغول عن سماعه بكتابة الحيثيات ومنطوق الحكم على الرول بالرصاص إلى أن فرغ فرفع رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر إلى المتهم أو ينتظر بقية دفاعه .

— شهر مع الشغل .

— يا سعادة القاضى أنا عندى شهادة . لا ضربت ولا بطحت . الحكم ظلم . ظلم يا ناس .

— اخرس ! اسحبه يا عسكرى !

فسحبه العسكرى بعيدا . ونوديَت القضية التالية . فحضر رجل هَرِم مقوَّس الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضى :

— بددت القمح المحجوز عليه ؟

— القمح قمحى يا سعادة القاضى وأكلته أنا والعيال .

— معترف . حضورى ، حبس شهر مع الشغل .

— شهر ! يا مسلمين ! القمح قمحى . زراعتى ... مالى ...

فسحبه العسكرى . وهو ينظر بعينين زائغتين إلى الحاضرين كأنما هو لا يصدِّق أن الحكم الذى سمع حقيقى . إن أذنه لا شك قد خانته ، وإن اليقين عند الناس الحاضرين . فهو لم يسرق قمح أحد ، لقد جاءه المحضر حقيقة فحجز قمحه وعينه حارْسا عليه حتى يسدد مال الحكومة ، ولكن الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه فمَن ذا الذى يعدّه سارقا ويعاقبه عقاب السارق ؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن يفهم هذا القانون الذى يسميه لصاً لأنه أكل زراعته ، وثمرة غرسه . إن هذه الجرائم التى اخترعها القانون اختراعا ليحمى بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليست فى نظر الفلاح جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل

جريمة والسرقة جريمة . لأن فى ذلك اعتداء ظاهرا على الغير ، وأن الرذيلة الخلقية فيها بديهية جلية ، ولكن التبديد ... كيف يفهم أركانه وحدوده ؟ إنما هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن بوجودها ، وأسلم الشيخ أمره لخالقه . وتسلمه الحراس وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

ونوديت القضية التالية ، ولم يكد المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضى قد وزن « الدوسيه » فى يده فوجده ثقيلا والشهود كثيرين ؛ ونظر إلى ساعته ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محاميا فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ولم يخب ظنى ، فقد التفت إلى النيابة قائلا :

ـــ النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدى إلىَّ مرتبكاً ، فأسرعت قائلا :

ـــ بالعكس ؛ النيابة تعارض فى التأجيل .

فأخفى القاضى امتعاضه وقال فى شبه همس :

ـــ ننظرها والسلام . هات الشهود ...

غير أن القاضى ذكر أن هذه القضية إنما هى قضية « معارضة » فى حكم غيابى سبق فيها . وينبغى أن تقدم المعارضة فى خلال ثلاثة أيام . فقرأ فى الحال التواريخ وصاح من فوره فى المتهم متنفسا الصعداء :

ـــ القضية مرفوضة شكلا يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد .

فلم يفهم الفلاح ذو « العِرى » هذا الكلام . وقال :

ـــ والعمل إيه يا حضرة القاضى ؟

ـــ العمل أن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك . احجزه يا عسكرى .

— الحبس بالزور يا حضرة القاضى ؟ أنا مظلوم . لا قاضى سمع كلامى ولا حاكم طلب سؤالى لحد الساعة !

— اخرس ! معارضتك يا رجل بعد الميعاد ؟!

— وماله ؟

— القانون يا رجل انت محدد ثلاثة أيام .

— أنا يا سيدى القاضى غلبان لا أعرف أقرا ولا أكتب . ومن يفهمنى القانون ويقرّينى المواعيد ؟

— يظهر أنى طوّلت بالى عليك أكثر من اللازم . أنت يا بهيم مفروض فيك العلم بالقانون . احجزه يا عسكرى !

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمنة ويسرة إلى من حواليه ليرى أهو وحده الذى لم يفهم ؟!

وجعلتُ أتأمل لحظة سحنةَ هذا المخلوق الذى يفترضون فيه العلم بقانون « نابليون » !!

وانتهت الجلسة آخر الأمر . ووثب القاضى ناهضا وعاد إلى حجرة المداولة ، وخلع وسامه على عَجَل ، فإن قطار العودة لم يبق على قيامه غير سبع دقائق . ولكن القاضى تعوّد الركوب فى آخر لحظة ، فهو فى إسراعه لم يفقد ثباته الداخلى ولا اطمئنانه ، وتناول معطفه الأبيض ووضعه على ذراعه وسلم علينا وانصرف إلى المحطة فى شبه ركض ، وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعا ببعض الملفات وخلفه عسكرى يسحب مسجونا والكاتب يصيح :

— القاضى مشى ؟ عندنا معارضة فى أمر حبس معروضة على حضرة القاضى .

فقلت له فى الحال :

ـــ الحق القاضى على المحطة قبل ما يركب .

فصاح الكاتب فى العسكرى :

ـــ هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة .

وهرول الجميع : الكاتب والجاويش والمسجون فى ذيل حارسه مربوطا فى السلسلة كأنه كلب . وجرُوا كلهم خلف القاضى الراكض . هذا منظر مألوف لأهل البلد فى يوم هذه الجلسة . فإن المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتمضى فى « بوفيه » المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين ، ويتحرك القطار وقدَم القاضى ما زالت على الرصيف والأخرى فى العربة الأخيرة وهو يقول :

ـــ رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم .

فيدوِّن الكاتب منطوق هذا الحكم فوق « رخامة » مائدة البوفيه بينما يتسلم القاضى من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك « سلالى » البيض والزبد واللحم ، والحاجب يصيح بأعلى صوته :

ـــ اللحم يا بك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !

وصعدت بعد الجلسة إلى مكتبى أنا ومساعدى وقد بدا الوجوم على وجه المساعد ، فقد كان يحسب أن النيابة ستقوم فى كل قضية تشرح وجهة نظرها فى الاتهام . ولقد كان أعدَّ لذلك مرافعات طويلة مكتوبة بخط واضح جميل على « أفرخ فولسكاب » مسطَّرة ، فإذا هو يخرج بها من الجلسة مطوية كما دخل بها ، وإذا الأحكام قد انطلقت انطلاق القطار فى بساطة وسرعة ، والعدالة قد جرت مجراها فى طرفة عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلى هذا التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال

الذى سهر لياليه ليحشو به هذه الأوراق .

وخلوت أخيرا فى مكتبى . ودخل على رئيس القلم الجنائى ببريد النيابة . وفتح مظاريفه أمامى كالمعتاد فى كل صباح ، وما كدنا نفض غلافا أو غلافين حتى سمعنا ضجيجا خارج الحجرة وصوتا مدوّيا عرفت فيه صوت الشيخ عصفور ، فبعثت من يسأله عن خبره ، فقيل لى : إن المركز أرسله اليوم مقبوضا عليه بعد أن حرر له محضر تشرد . فأدركت أن المأمور ما زال يعتقد أن هذا الشيخ هو الذى خطف البنت . وأن حقده عليه ما زال متأججا وأنه لجأ إلى وسائل الإدارة ليوقع به . إن فكرة اتهام الشيخ عصفور بالتشرد فكرة نيرة لا يمكن أن تخطر إلا بذهن المأمور المغيظ . والحقيقة أن هذا الشيخ متشرد لا أكثر ولا أقل . وهو من هذه الناحية يصلح فريسة لنصوص القانون التى بين أيدينا . ولكن العجيب أن يسكت عنه المركز كل تلك الأعوام التى مضت ولا يفطن إلى أمر صناعته إلا الساعة .. إن هذه الوسيلة لم تعجبنى كثيرا ولم ترض ضميرى القضائى ؛ فإن نصوص القانون لا ينبغى أن تكون أسلحة فى أيدينا نضرب بها على مَن نريد ضربه فى الوقت الذى نختاره . إن القبض على الشيخ عصفور اليوم هو من غير شك مسألة انتقامية . إن المأمور وقد رأى هذا الرجل يفلت من تهمة خطف الفتاة دبر وفكر فى طريق آخر لا يستطيع منه الإفلات . هذا أسلوب الإدارة الذى لا يحسن أن يسلكه رجال القضاء ؛ وعزمت فى نفسى أن أفرج عن الرجل ، ولكنى أرجأت النظر فى أمره حتى أفرغ من « توريد البوستة » التى أمامى . فلقد قدم لى عبد المقصود أفندى مظروفا أصفر ضخما علمت أن فيه « قضايا جنايات » مرسلة إلينا من الرياسة لدرسها والمرافعة فيها أمام محكمة الجنايات المنعقدة فى هذا الشهر فى

عاصمة المديرية التى نعمل فى دائرتها . فألقيت نظرة على هذه القضايا فوجدتها تحوى مئات الصفحات . وهل لى رأس يتسع الآن لكل هذا ؟ لا شىء ينفرنى من عمل النيابة غير المرافعة فى قضايا الجنايات . فإن من العسير على ذاكرتى الضعيفة أن تحيط بكل تلك التفاصيل التى تتكون منها الجريمة كى تبسطها بعد ذلك فى نظام وترتيب وهدوء أمام مستشارين ثلاثة عابسين ومحامين متربصين ، وجمهور يشاهد ويحكم لا على لب الموضوع ، بل على مدى إتقان الحركات والإشارات ، ورنين الصوت فى القاعة ، ومهارة الإلقاء ، والضرب باليد فوق المنصة . إنى بطبعى لا أصلح إلا لملاحظة الناس خِفية يتحركون فوق مسرح الحياة ، لا أن يشاهدنى الناس ممثلا بارعا قد سلطت على وجهه الأضواء ، إن هذه المواقف تعمى بصرى ، وتُذهب لبى ، وتطير ما فى ذاكرتى ، وتفقدنى ذلك الهدوء النفسى الذى أرى به أعماق الأشياء ، لذلك ما ترددت وأمرت بإحالة هذه القضايا على المساعد ، فهو ما زال فى تلك السن التى يبهر فيها الإنسان ويعجب بهذه المواقف والمظاهر ؛ وقد يكون له من حسن الاستعداد لهذا العمل ما يجب علىَّ أن أوجهه إليه . وإنى فوق ذلك أتيح له فرصة الإقامة أياما فى عاصمة المديرية حيث يجد فى ملاهيها ومشاربها ما يرفه عنه . ويلطف من أثر الوحدة والضيق فى هذا الريف الصامت . وأعجبتنى هذه الحجج ورأيتها كافية لإقناعى بوجوب إزاحة هذه القضايا الثقيلة عن كاهلى . وناولنى رئيس القلم الجنائى بعد ذلك مظروفا آخر صغيرا قرأت عليه بالحبر الأحمر كلمة « سرّى » فقلت فى نفسى : « تلك ملحوظة من النائب العام » . فأسرعت بفضه فإذا هو بلاغ من مجهول أُرسِل إلى النائب العمومى رأسا فى القاهرة فأحاله علىَّ لإجراء اللازم فيه فنشرته فى يدى

وقرأته بإمعان ، ولم آت على آخره حتى كان قد استولى عليَّ العجب ، وأطرقت لحظة أفكر ، ثم أعدت النظر فيه وتمهلت فى قراءة سطوره هذه :

« سعادة النائب العمومى بمصر دام

نعرفكم بأن الحرمة زوجة قمر الدولة علوان المضروب الموجود « بالاسبتالية الميرى » كانت ماتت من سنتين مخنوقة وتستَّر عليها حلاق الصحة من أجل الرشوة وأجرى دفنها بدون علم الحكومة واسألوا زوجها علوان وأختها البنت ريم عن الذى خنقها . وأسباب الجريمة معلومة ولا تخفى على فطنتكم إذا كلفتم خاطركم بالتحقيق بنفسكم وإنكم تكشفون أسرارا خطيرة وتضربون على أيدى الأشرار . « وتوضعون » العدل فى مجراه . والعدل أساس الملك . وقد قال الله عز وجل فى كتابه العزيز : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ صدق الله العظيم » .

« فاعل خير »

١٧ أكتوبر ...

فكرت مليًّا فى أمر ذلك الخطاب ، مَن ترى يكون مرسله المجهول ؟ الأسلوب ينم عن أن صاحبه أزهرى فسد . هذه الآية القرآنية وهذا التوزيع لا يصدران إلا عن هذا الصنف الذى يستغل علمه القليل وجهل الناس المطبق فى الريف ، فيعيش على تحرير البلاغات المأجورة وبذر الشقاق بين الأسر والأفراد . ولكن فى هذا الخطاب على أىّ حال وقائع تستدعى التحقيق . ولو صح ما جاء فيه من أن زوجة قمر الدولة قتلت خنقا لخرجنا من الأمر بجناية تمخضت عن جناية ! لا يهمنا الآن البحث عن صاحب الخطاب بقدر ما يهمنا التأكيد من صحة الاتهام . لا بد إذن من فتح المقبرة واستخراج جثة زوجة المصاب وعرضها على الطبيب الشرعى . وقد اتجه تفكيرى كله هذا الاتجاه فلم أشغل ذهنى بما ورد عن ريم فى هذا البلاغ وما يمكن أن يلحقها من شر . ذلك أن كل شىء مترتب على نتيجة فحص الجثة . وكنت قد بادرت فأخطرت الطبيب الشرعى ببرقية ، وقمت بما يلزم من إجراءات لفتح المقبرة ، فعينت عليها الحراس يسهرون الليل بجوارها حتى لا يعبث بها عابث . وأرسلت فى طلب « اللحّاد » وكنت قد اتصلت تليفونياً بالمركز عقب قراءتى ذلك الخطاب لأخطر المأمور ، فقيل لى إن المأمور ركب ومضى إلى اجتماع خطير معقود فى المديرية برياسة المدير.وحضر إلىَّ للفور المعاون يقول :

— سعادتك اطلعت طبعا على جرائد المساء ؟

— أبدا .

— فى البلد أزمة وزارية .

فأدركت فى الحال سر اجتماع المديرية ، وعلمت أن رجال الإدارة منذ

الساعة لن يكون لهم عقل ولا فكر فى غير تنسُّم هوى الوزارة الجديدة ، حتى يعدُّوا أنفسَهم للميل معها كما مالُوا مع غيرها . وهذا الميل يبدو أكثر ما يبدو فى التجهم السريع للعُمَد والأعيان الموالين للوزارة الآفلة ، والابتسام الوديع لأنصار الوزارة المقبلة . ولم أُبْدِ أيّة ملاحظة للمعاون فأنا رجل قضاء لا ينبغى لى الكلام فى السياسة ؛ ومهما تغيرت الوزارات والأحزاب فإن القانون هو القانون . والتفت إليه أخيرا وقلت فى هدوء :

— أظن حضرتك تقوم معنا بدل المأمور .

— الظروف الحاضرة تمنعنى من ترك المركز . لكن ملاحظ النقطة موجود هنا فى خدمة سعادتك .

فتركته ينصرف إلى مركزه ، وأمرت بإعداد السيارة ، وجلست أنتظر الطبيب الشرعى وقد أجاب على برقيتنا بإشارة تليفونية أنه حاضر اليوم . ودخل علىَّ عبد المقصود أفندى وأشار بيده إلى « النتيجة » المعلقة بالحائط ، وذكرنى بضرورة تفتيش سجن المركز ، فالنيابة عليها أن تقوم بهذا التفتيش فجأة مرتين فى كل شهر على الأقل فلم ألتفت إليه وأمرته أن يذكرنى فيما بعد ؛ فمشى خطوتين ثم عاد وغمز بعينيه :

— فيه إشاعة أن الوزارة الجديدة تألفت وناوية تجرى انتخابات جديدة .

— وما له ؟

— غرضى يعنى ... قبل سجن المركز ما يزدحم ...

فلم أنبس بكلمة وتشاغلت بتقليب أوراق القضية التى نقوم من أجلها ؛ ورأى رئيس القلم الجنائى أنى لن أجيب فانصرف مترددا متباطئا .

وأدركت من هيئته أنه لم يأت من تلقاء نفسه ؛ فناديته فرجع ، فقلت له فى ابتسامة التخابث :

ـــ كاتب ضبط المركز كلمك فى التليفون ؟

فأجاب للفور :

ـــ طبعا ودفاتر السجن مسدَّدة جاهزة ... ومحضر التفتيش مكتوب . وكل شيء تمام ، ولا باقى غير إمضاء سعادتك .. والحكاية كلها قيمة ربع ساعة ونكون انتهينا من مأمورية تفتيش السجن .

فنظرت إليه شزرا :

ـــ شيء جميل ! تفتيش فجائى مضبوط يا عبد المقصود أفندى ... ؟

فارتبك الرجل قليلا ثم قال :

ـــ أنا غرضى راحة سعادتك من جهة ، وعدم إحراج المركز فى الظروف الحاضرة من جهة أخرى ...

ـــ طيب . طيب ...

وأسرعت فأقفلت باب الموضوع . فقد سمعت نقرا على باب حجرتى ، وأبصرت من خلفه الطبيب الشرعى بحقيبته الصغيرة يستأذن فى الدخول . فنهضت فى الحال واتجهت إليه وأدخلته مرحِّبا . وطلبت له فنجانا من القهوة . ثم تجاذبنا الحديث فى الأحوال العامة . فأخبرنى باختصار ما سبق أن علمته من عبد المقصود أفندى من أن الوزارة الجديدة قد تسلمت فعلا مقاليد الأمر ، وأنها تعد العدة لانتخابات جديدة . ولم نعلق على هذه الأخبار بشيء فكلانا يجهل ميول الآخر . كلانا يخشى أن يظهر رأيه الدفين . وبدأنا لوقتنا الكلام فى العمل وفى القضية التى بين أيدينا ، وأخبرت الطبيب بظروفها فى عبارات سريعة . واستقر الرأى على المبادرة

بالانتقال إلى المقبرة . فقمنا إلى السيارة وانطلقنا ولم نقف حتى بلغنا مكانا قصيا فى المزارع قد تجمعت فيه تحت ظل نخلتين أو ثلاث بضع مقابر من الطين والآجر قد علتها « شواهد » طويلة سمراء كأنها رءوس العفاريت فنزلنا . وهرع لاستقبالنا الحراس . هبوا فجأة من مراقدهم لمرآنا وخرجوا علينا ، بعضهم يهبط من أعالى « مرتبة » قد وضعت فوق المقبرة كما يوضع الهودج فوق الناقة ؛ وبعضهم يثب من على حصير فرش بين يدى هذه المقبرة كأنهم قردة تثب من حجر أمها ، وسألت عن حضرة ملاحظ النقطة فأشاروا إلى الطريق الزراعى فرأيت فتًى فى ملابسه العسكرية يقبل متبخترا على حصانه الأشهب . ولم تمض لحظة حتى بدأنا العمل ، فأمرنا اللحَّاد بفتح المقبرة فأعمل فى الحال فأسه ومِعوَله فى البناء الذى يخفى المدخل . وسألنى الطبيب الشرعى عمَّا إذا كنا استدعينا أحدا من أهل المتوفاة يستطيع أن يتعرف على الجثة وكفَنها ؛ فأجبته إنا لا نعرف للمتوفاة غير أخت قد هربت واختفت . فاقترح إيفاد الملاحظ إلى القرية يحضر لنا امرأة من الجيران ممن حضروا غسلها أو دفنها . فقام الملاحظ للفور لما انتدب له . وأمعن اللحاد فى الدق والهدم حتى جرح صدر المقبرة جرحا بالغا وقام عنها وهو يقول :

ــ الباب من غير مؤاخذة من ورا ...

وتناول أدواته وذهب إلى الناحية الأخرى وجعل يوسعها ضربا وطرقا . فصاح به الطبيب الشرعى :

ــ هى دى يا رجل انت مقبرة توت عنخ آمون ؟ تغلط فى المدخل وأنت لحَّاد الناحية !

ــ أصل يا حضرة الدكتور مضى عليها زمن مقفلة .

وضرب ضربتين انفتح تحتهما المدخل . وزحف الرجل على يديه وقدميه إلى داخل المقبرة وخرج يجذب شيئا ملفوفا فى « قماش » لا لون له من القِدَم تـكاد أطرافه تتفتت فى أصابعه ؛ ووضعه تحت أنظارنا وهو يقول :

ـــ شوفوا هى دى « بلا قافية » الحُرمَة ؟

فكشف الطبيب الشرعى عن تلك العظام النخرة ونظر فيها ثم قال للحاد :

ـــ ارجع بها يا حمار . دى جثة رجل .

ـــ راجل ؟!

واختفى اللحاد بالجثة فى قلب المقبرة وعاد فظهر بجثة أخرى ما كاد يفحصها الطبيب حتى وجدها هى كذلك جثة رجل . وهكذا ظل يعرض علينا الجثث التى وقعت عليها يده فإذا كلها لرجال . فصاح اللحاد مغيظا :

ـــ أمال النسوان راحت فين يا رجاله ؟

فقال له الطبيب فى هدوء :

ـــ حضرتك بالاختصار غلطت فى المقبرة .

ثم نظر إلى المقبرة التى بجوارها وقال :

ـــ افتح دى .

فذهب اللحاد بأدواته حيث أشار إليه الطبيب بينما أنزل الحراس « متاعهم » من فوق المقبرة الأولى وهم يتهامسون !

ـــ بقى كنا راكبين غلط !

وفتحت المقبرة الثانية . وما كاد اللحاد يزحف إليها ويختفى فيها حتى ظهر الملاحظ عائدا وخلفه امرأة تخفى وجهها بطرف طرحتها السوداء

وترفع عقيرتها مُوَلوِلَة :

ـــ ياللى كنتِ منورة الحارة !

فسد الملاحظ فمها فى الحال منتهراً .

ـــ اخرسى يا وليَّة !

واقترب الطبيب الشرعى من المرأة وحادثها فعلم منها أنها كانت جارة للمتوفاة وأنها حضرت جهازها .

ـــ اسمعى يا ستى . الميِّتة كفنوها قدامك ؟

فتنهدت المرأة وقالت :

ـــ قدامى يا سيدى ، وبقيت بعيد عنك أُلطم وارقع بالصوت .

ـــ المهم عندنا مش اللطم ، كفنوها فى كم « درج » ؟

ـــ فى عين العدو تلات « أدراج » : درج مرمر ودرج كزمير ودرج حرير أخضر ...

وخرج اللحاد وقتئذ يجذب من داخل المقبرة جثة فحص الطبيب كفنها وقد ذهب لونه بفعل الزمن إلا بقية اخضرار خفيف فى أطرافه ينم عن حقيقة لونه الغابر ، فأمر من الفور بحمل الجثة ووضعها على « لوحين » من الخشب نُصبَا سريعاً على هيأة مشرحة تحت ظلال شجرة من السنط ، وطلب إبعاد الحاضرين فرفع الملاحظ عصاه الخيزران الرفيعة فى يده وفرَّق الناس صائحا :

ـــ بعيد . بعيد ...

وكشف الطبيب الكفن فى احتياط . وما كاد ذلك الهيكل العَظمى المسجَّى يظهر للعيان حتى سمعت خلفى همسا وهمهمة ، فاستدرت فأبصرت سائق السيارة مختفيا خلف جذع الشجرة شاحب الوجه

بارز العينين يشاهد هذا المنظر ولا يملك نفسه :

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله ! إنا لله وإنا إليه راجعون !

ولمحه الطبيب فانتهره وأمره بالابتعاد . وصيحت أنا كذلك فى السائق صيحة انصرف بعدها إلى سيارته وقبع فيها . غير أنى تأملت قليلا أمر هذا السائق ... ما الذى روّعه ؟ أهو منظر العظام فى ذاتها ، أم فكرة الموت الممثلة فيها ، أم المصير الآدمى وقد رآه أمامه رأى العين ؟ ولماذا لم يعد منظر الجثث أو العظام يؤثر فى مثلى وفى مثل الطبيب ، وحتى فى مثل اللحاد أو الحراس هذا التأثير ؟ يخيل إلىّ أن هذه الجثث والعظام قد فقدت لدينا ما فيها من رموز . فهى لا تعدو فى نظرنا قطع الأخشاب وعيدان الحطب وقوالب الطين والآجر . إنها أشياء تتداولها أيدينا فى عملنا اليومى . لقد انفصل عنها ذلك « الرمز » الذى هو كل قوتها . نعم . وماذا يبقى من كل تلك الأشياء العظيمة المقدسة التى لها فى حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها ذلك « الرمز » ، أيبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير المكترثة غير جسم مادى حجر أو عظم لا يساوى شيئا ولا يعنى شيئا . ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها « الرمز » ... « الرمز » هو فى ذاته كائن لا وجود له . هو لا شىء . وهو مع ذلك كل شىء فى حياتنا الآدمية . هذا « اللا شىء » الذى نشيد عليه حياتنا هو كل ما نملك من سمو نختال به ونمتاز على غيرنا من المخلوقات . هنا كل الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا .

وقطع الطبيب سلسلة تفكيرى بمقص طبى فى يده ذات القفاز الجلدى الشفاف يفحص به العظام قائلا :

ــ امرأة من غير شك .

ومضى فى عمله وهو يقول :

— الأضلاع سليمة ، والجمجمة : الطاسة سليمة ، والعظم اللامى ..
وهنا نظرت إليه فى انتباه . فالعظم اللامى فى العنق هو الدليل الناطق على حدوث الجريمة . فإن كسره معناه أن الخنق قد وقع . وإن كل ما يهمنا فى الحقيقة من استخراج الجثة والكشف عنها هو فحص العظم اللامى والتحقق من سلامته . ولم يمهلنى الطبيب حتى أسأله وصاح وهو يرينى هذا العظم بين أصابعه :
— مكسور .
هذه الكلمة كانت كافية لتحديد موقفى من الأمر . إن ما جاء فى البلاغ المجهول المصدر حقيقى إذن . وماذا أنتظر بعد ذلك وصحت فى الطبيب :
— انتهينا .
وعزمت على العودة مسرعا للبدء فى تدبير ما ينبغى للوصول إلى معرفة سر هذه القضية الجديدة ، فهى من دون ريب مفتاح الأولى . وفرغ الطبيب الشرعى من أمر الجثة وأعادها اللحاد أمامنا إلى مقرها وسد عليها كما كانت . وأنا صامت فى مكانى أفكر فيمن يكون الخانق لهذه المرأة . أهو زوجها المصاب ؟ وما الذى حمله على ذلك ؟ وأختها ريم ما شأنها فى الأمر ؟ أتراها تعلم بهذه الجريمة ؟ وأين ريم الآن ؟ إن وجودها اليوم فى التحقيق ذو أهمية كبرى . ولكن كيف نعثر عليها ؟ إن الشيخ عصفور يعلم مقرها ، أو على الأقل يستطيع أن يعاوننا فى البحث عنها . إذن فلنجعل الشيخ عصفورا مبدأ لخط السير الجديد . فلأقنعه أنا إذن بوسائلى بعيدا عن طرق الإدارة العنيفة . إن مثله قد يؤخذ بالحيلة والهدوء . ترى لو أفهمته مثلا أن فى إمكانى أن أزوجها منه ... وأعجبتنى الفكرة وعزمت على

تنفيذها . وركبنا السيارة عائدين . ومررنا فى طريقنا بالقرية ، فإذا أصوات حزن وولولة نساء ترتفع من « دوار » العُمدة فقلت وأنا أوقف السائق بإشارة :

ـــ العمدة مات ؟

وأطللت من نافذة السيارة ، فإذا أنا أمام منظر لم أفهمه أول الأمر . ورأيت شيخ الخفر ووكيله وبعض الخفراء يحملون شيئا فى أيديهم ، ومن حولهم جموع الرجال والنساء والصبيان يهللون ويكبرون والنساء يزغردن كما يفعلن فى الأفراح وفى أيديهن الدفوف يضربن عليها . وتأملت جيدا ما يحملونه وتأمل معى الطبيب الشرعى دهشاً فرأينا آلة تليفون حكومية من طراز تليفونات المراكز . فصاح الطبيب فى عجب :

ـــ التليفون له زفة كأنها زفة عروسة .

ومر بقربنا خفير نظامى فأشرت إليه فاقترب وسألته عن الخبر فأجابنى أنه قد صدر اليوم أمر برفت العمدة الحالى وتعيين آخر مكانه من الأسرة المنافسة فى القرية . ففهمنا كل شىء ، ومال على الطبيب يقول ضاحكا :

ـــ يظهر إن تليفون الحكومة عند العمدة فى مقام الصولجان .

هذا صحيح فيما أرى . إنه مظهر السلطة والحكم وأداة الاتصال بالحكومة ، وإن خلعه من دار العمدة « المخلوع » إنما هو « رمز » زوال السلطة ، وأن هذا العويل المرتفع من « دوار » العمدة القديم ، وهذا البكاء الذى يشيع به التليفون الخارج من بيته لدليل على فداحة المصيبة ؛ وهذه المصيبة ككل مصيبة لها وجهها الآخر الباسم يطل على ناحية أخرى ؛ وإن دار العمدة الجديد الذى يستقبل التليفون الداخل عليه بالزغاريد

والدفوف لدليل أيضا على مبلغ السعادة والهناء.هنا « الرمز » كذلك فى شكل « تليفون » من الصلب والخشب قد لعب دورا مهما على مسرح هذه القرية الوادعة .

وانطلقت بنا السيارة والطبيب صامت فى بعض الطريق . وأخيرا التفت إلىَّ وقال :

ــ يظهر أن العمدة الجديد من محاسيب الوزارة الجديدة .

فقلت له :

ــ إن هذه القرية ، ككل قرية اليوم فى مصر بها عائلتان قويتان أو أكثر تتنافس فى العُمُدية ، وكل منها ينتمى إلى حزب من الأحزاب التى تتنازع الحكم ، ولماذا تريد أن يكون الحال فى القرية غيره فى الدولة ؟ وهل القرية إلا مصغر الدولة ؟

١٨ أكتوبر ...

كان أول ما فعلت عقب رجوعى إلى مكتبى أن أرسلت فى طلب الشيخ عصفور ، فحضر أمامى مطرقا صامتا فابتدرته :

ـــ البنت ريم تعجبك ؟

فرفع رأسه ونظر إلىّ نظرة أحسست أنها نفذت إلى أعماق نفسى ، ثم عاد فأطرق ولم يجب .

فقلت له :

ـــ أنا مستعد أطلب المأذون وأعقد عليك وعليها حالا .

فلم يبد حراكا ، فمضيت أقول :

ـــ لو كانت موجودة هنا كنت حالا ...

وجعلت أستحثه على الكلام فلم يخرج عن صمته . وأخيرا ترنم بصوت كالهمس لكنه واضح النبرات :

نهيـــتك مـــا انتهيت
والطبـــع فيك غالب
وديل الكلب ما ينعدل
ولو علقـوا فيـه قالب

فما تمالكت أن صحت :

ـــ اخرس يا بهيم !

وأسرعت بطرده ، وقد تبين لى أن لا فائدة ترجى من مثله . ورأيت أن أسأل حلاق الصحة ؛ فاستدعيته وسألته فى أمر المرأة المخنوقة وكيف صرح بدفنها بدون إذن النيابة ، فقال من فوره :

— وشرفك يا سيدنا البك ما أعرف إن كانت مخنوقة أو محروقة ، حضرة حكيم الصحة أمر بالدفن كالمعتاد .

— بدون توقيع كشف ؟

— لو كنا نقعد نكشف يا سعادة البك على كل متوفى كان زماننا توفينا من بدرى .

— بقى بالاختصار لا حد كشف ولا نظر ...

— الجارى عليه العمل يا سعادة البك أن حلاقين الصحة فى الجهات تبلغ الدكتور المفتش بالتليفون ، وحضرته قاعد على مكتبه هنا ما عليه إلا أنه يسأل فى كل حالة عن سبب الوفاة نرد عليه فى التليفون : ماتت يا دكتور موتة ربها ، يقوم يقول : ادفن ، ادفن ، ادفن ...

— ما شاء الله ، ما شاء الله ، ما شاء الله !

ولم أرَ فائدة كذلك من البحث مع هذا الحلاق فأنا أدرَى الناس بحلاق الصحة . إن كل مهمتهم أن يقبضوا من أهل المتوفى خمسة قروش ويحصلوا لهم على الإذن بالدفن دون أن ينظروا فى وجه جثة أو ينتقلوا إلى منزل متوفى . إن هم إلا سماسرة « دفن » ، حتى مع فرض وجود النزيه منهم الذى يريد القيام بواجبه فيذهب للكشف على الجثة ، ماذا يستطيع مثل هذا الجاهل أن يستكشف ؟ إنه سَيرى رجلا أو امرأة قد فاضت روحها وليس بها إصابات ظاهرة . فكيف يعرف أن الوفاة مشتبه فى أمرها ؟! إن « نظام » حلاق الصحة نفسه ، هذا النظام الذى لا تعرفه أية دولة على بسيط الأرض هو موطن الداء . ومثله عندنا نظام « الدايات » وإنى ما زلت أذكر ما قصه علىَّ طبيب مستشفى المركز ذات يوم . قال لى : إنه دُعى إلى حالة ولادة عسرة فى إحدى جهات الريف ؛ فذهب مسرعا

فوجد المريضة ملقاة على ظهرها وقد تدلت منها ذراع الجنين وبجوارها عجوز حمراء الشعر والشدقين ، قيل له إنها « ست هندية الداية » وأخبروه أن المريضة قد مضى عليها ثلاثة أيام على هذه الحال بهذه الذراع الخارجة منها . فسأل الداية : لماذا انتظرت كل هذا الوقت ولم تخطرى الطبيب ؟ فأجابت : « كنا منتظرين ستر ربنا ، قلنا المولى ينتعها بالسلامة » . ووضع الطبيب يده فى الرحم فإذا الرحِم محشو بالتبن ، وإذا مثانة المريضة قد تهتكت وأنها هالكة لا أمل فيها ، وأن المولود قد مات منذ يومين . وألقى نظرة حوله فإذا كومة من « التبن » القذر عند أقدام المرأة . فالتفت إلى « ست هندية الداية الصحية » مستفهما ، فقالت : أصل يا سيدى الدكتور لما دخلت يدى أسحب الولد لقيتها راحت « مزفلطة » ، قمت قلت « أحرش كفى بشوية تبن » . ومدت للطبيب يدا ملوثة « بالتبن » قد بدت منها أظافر طويلة سوداء . وقال لى الطبيب : « إن الداية تولّد المرأة كما لو كانت جاموسة » . وماتت المريضة مع طفلها واكتفت الصحة بأن سحبت من هذه الداية « الصحية » التصريح . ولكنها لم تغير النظام وهى تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه الصورة كل عام ...

نظرت إلى حلاق الصحة مليًّا وأدركت أن أرواح الناس فى مصر لا قيمة لها . لأن الذين عليهم أن يفكروا فى هذه الأرواح لا يفكرون فيها إلا قليلا . وطردت هذا الرجل أيضا ، وقلت فى نفسى : إن خير السبل فى مثل هذه القضية أن أعرف مرسل البلاغ المجهول ، وفكرت لحظة ، وخطر لى أن أعرض خطه على القاضى الشرعى وهو يتحرى لى بين موظفى محكمته وبين المحامين الشرعيين . ولعله هو نفسه قد مر به هذا الخط . وما دمت أعتقد أن صاحب الخطاب أزهرى فليكن البحث فى دائرة المحكمة

الشرعية ؛ وطلبت فى الحال عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى وهو من أصدقاء القاضى الشرعى وكلفته أن يرافقنى فى الحال ، ولم يمض قليل حتى كنا فى بناء تلك المحكمة ، فسألنا عن القاضى فدلونا على حجرة أمام بابها « قبقاب » ؛ فهمس عبد المقصود أفندى فى أذنى أن فضيلته لا شك كان يتوضأ كى يصلى الظهر . وسرد لى فى عبارتين مبلغ ورع هذا القاضى وزهده ، وضربنا على الباب ودخلنا . فرأينا القاضى خالعا جبته وعمامته وهو جالس على حصير الصلاة ، فلما رآنا نهض وحيانا وأجلسَنا على الكراسى وطلب لنا « زنجبيل » ورأى عبد المقصود أفندى أن يوفر علىَّ مئونة بدء الحديث ، فالتفت إلى القاضى الشرعى وقال :

ـــ البك وكيل النيابة غرضه يطلب من فضيلتك ...

فأجاب القاضى سريعا فى شىء من القلق :

ـــ خير إن شاء الله . طلب خصوصى أو ...

وذكرتنى هيئته وقلقه بقصة عنه قصها علىَّ المأمور قال لى يوما : إن المدير اقترح تحسينا لمظهر المركز ومراعاة للصحة العامة إنشاء متنزه فى وسط البلد ، وقد تبرع بعض الأعيان بما استطاعوا التبرع به من مالهم ، وبلغ القاضى الشرعى ذلك ؛ فذهب إلى المأمور وسفَّه له هذا المشروع واقترح أن يقام بدل المتنزه مسجد لعبادة الله وحض الناس على التقوى والصلاح ، فأمن المأمور الخبيث على كلام القاضى وتحمس لرأيه أعظم التحمس ، وقال له :

ـــ لا بد من عرض اقتراح المسجد على سعادة المدير ، وأنا متأكد أنه موافق مقدما ، وزيادة فى إدخال السرور على قلب سعادته نكتب اسم فضيلتك فى رأس قائمة التبرعات ، باعتبار أنك متبرع بمبلغ خمسة جنيهات .

وأخبرنى المأمور أن القاضى وكأنه لم ينم الليل ، حضر إليه فى الصباح المبكر يجرى ويقول له فى تردد :

ـــ مشروع المسجد بلغته لسعادة المدير ؟

فأجاب المأمور فى ابتسامة خفية :

ـــ طبعا اليوم آخر النهار أنا ناوى أقابل سعادته .

هذه الواقعة تمثلت فى رأسى فجأة عندما قال لنا القاضى فى قلق : «طلب خصوصى ؟» فقد قرأت ما جال فى نفسه . فهو لا شك قد خاف أن نكون قادمين لطلب تبرع من هذا النوع . فأسرعت أرد إليه الاطمئنان وأخبره أن حضورنا هو لعمل من أعمال وظيفتنا ، وأخرجنا فى الحال من ملف أوراقنا الخطاب الغفل وعرضناه عليه وحادثناه فيما نريد منه فانشرح صدره وقال :

ـــ موضوع بسيط . نشرب الزنجبيل أولا .. ثم ننظر بعد ذلك فى أمر البلاغ ...

وصفق بيديه وصاح :

ـــ يا شيخ حسنين . استعجل لنا الفراش .

ثم صمت قليلا . وعاد فحيانا :

ـــ أهلا وسهلا .. حصل لنا الشرف ..

ورأى عبد المقصود أفندى أن يبدى صلته بالقاضى ومعرفته له فأشار إليه والتفت إلىَّ قائلا :

ـــ فضيلته من كبار العلماء الراسخين فى العلم .

ووجه الكلام للقاضى :

أنا يا فضيلة القاضى لا أنسى يوم المحاضرة لما رديت على الولد المدرس ..

فقاطعه القاضى مستغفرا مستعيذا :

— أخزاه الله . أنا لا أطيق الصبر على الكفر والجهل .

والتفت القاضى إلىَّ وقال :

— تصور يا سيدى البك أن هذا الأفندى مدرس جغرافيا فى المدرسة الثانوية ، ألقى فيها محاضرة علنية عن عالم نصرانى اسمه « شنتون » قال إنه عرف بالضبط وزن الأرض والسماء ... أستغفر الله العظيم ...

وتأملت قليلا فى الاسم الذى نطقه القاضى . واهتديت آخر الأمر إلى أن المقصود به العالم الرياضى « اينشتين » ولذَّ لى أن أعرف ما جرى ، فهذا من غير شك صراع بين عقليتين واصطدام بين رأسين يحلو لمثلى دائما أن يشاهده ويقف على مداه ، فقلت للقاضى فى شىء من الاهتمام :

— وحضرت المحاضرة يا فضيلة الشيخ !

— حضرت والأمر لله من قبل ومن بعد .

— وماذا حصل ؟

— حصل يا سيدى أن هذا المدرس قام وقال فى حضرة الباشا المدير وكبار الموظفين والأعيان . إن هذا العالم الكافر قد أتى بما لم يأتِ به الأوائل والأواخر ، فقمت وصحت به : « كذاب يا حضرة المدرس ، لقد قال الله فى كتابه العزيز : ﴿ ما فرّطنا فى الكتاب من شىء ﴾ ؛ فأسكتنى الحاضرون فسكتُّ تأدُّبا لوجود سعادة المدير ، ولولا هذا ما سكتُّ ورب الكعبة ، ثم استمر هذا الأفندى فى كلام لا هو بالمعقول ولا بالمنقول إلى أن قال : إن عالمه النصرانى قد استطاع بمعادلات جبرية أن يزن الأرض والسماء ! فما تمالكت نفسى ونهضت وأنا أنتفض وصحت به : « مهلا يا حضرة الأفندى مهلا ، أخبرنا قبل كل شىء ، هل هذا العالم « شنتون » وزن

السموات والأرض بالكرسى أم بدون الكرسى ؟ ... فارتبك المدرس ونظر إلىَّ قائلا : « كرسى إيه ؟ » ، فرددت عليه بالآية الشريفة : ﴿ وسع كرسيُّه السمواتِ والأرضَ .. ﴾ أجب أيها المدرس الأفاك ، ها هنا الحاصل والجوهر ، الوزن كان بالكرسى أو بغير الكرسى ؟ ..

فكتمت ضحكى وقلت فى هيئة الجد :

— وأخيرا ... ؟

— وأخيرا يا سيدى ... لا شىء ، لم يستطع المحاضر أن يجيب ، واحتج وانسحب ، وضج الحاضرون واختلط الحابل بالنابل ، وغضب منى سعادة المدير واعتبرها إهانة لمجلسه ، وترك الناس المحاضرة ، وهى المسألة الأصلية ، والتفتوا إلى اعتدائى على مقام المدير وهى مسألة فرعية ، وتكاثروا علىَّ يطلبون إلىَّ الاعتذار ، فاعتذرت وأمرى لله ! ولكن مع ذلك أشعر أن من يومها والباشا المدير لا ينظر إلىَّ بعين الرضا ...

وسكت قليلا ثم قال فى لهجة أخرى :

— بمناسبة الحالة السياسية اليوم ، أظن الوزارة الجديدة ستجرى حركة تغيير وتبديل بين المديرين ورجال الإدارة كالمعتاد ؟

فلم أكد أفتح فمى لأجيب حتى دخل الفراش وهو نصف شيخ ، أعنى أنه يلبس العمامة على جلباب عادى قذر كجلابيب الفلاحين ، وهو عارى القدمين . وقدم لنا فنجانين من طرزين مختلفين قد كسر مقبضاهما فشربت فى احتراس وأنا أنظر إلى داخل الفنجان خشية أن يكون فيه بدل السكر صرصار . وفرغنا من الحديث والزنجبيل وبدأنا العمل . وطلب القاضى أوراقا بخط موظفيه ضاهيناها بخط البلاغ فلم نجد مشابهة . وعرضنا البلاغ على مَن فى المحكمة لعل أحدا يذكر لنا أنه يعرف صاحب

هذا الخط فلم نظفر بطائل ، وخرجنا من المحكمة كما دخلنا ومشينا فى طريقنا إلى دار النيابة . فقال عبد المقصود أفندى :

ـــ نمر بالمرة نفتش سجن المركز ونخلص .

فلم أُبْدِ اعتراضا . وذهبنا إلى المركز فوجدنا المأمور وقد جمع بعض العُمد فى حجرته وجعل يشرح لهم وجهة النظر الجديدة ويصدر إليهم تعليماته بنفس الحماسة التى كان يبديها فى مبدأ تولى الوزارة السالفة . فما إن رآنى وعلم بالغرض من زيارتى حتى خفَّ لاستقبالى وأجلسنى فى صدر حجرته . وفض مجلسه وهو يشيِّع العُمد إلى الباب قائلا :

ـــ فتح عينك يا عُمدة أنت وهو . مرشح الحكومة فى الانتخاب لازم ينجح ، أنا نفضت يدى وأنتم أحرار ، مفهوم ؟ ...

فأجابوا فى صوت واحد :

ـــ مفهوم يا حضرة البك .

وتردد أحدهم وقال :

ـــ فيه يا جناب البك جماعة مشاغبين أقويا كلمتهم مسموعة من العائلة الثانية الكبيرة ...

فدفع المأمور فى كتفه دفعاً وقال له :

ـــ المشاغبين اتركهم لى أنا ! ... تفضل .

فخرجوا جميعا وعاد إلىَّ المأمور يتنفس الصعداء ويقول فى صوت متعب :

ـــ بقى لى يومين بليلتين فى القرف ده .

وأردت أن أداعبه وأخيفه قليلا فقلت :

— لكن يا حضرة المأمور معروف عنك إنك من حزب الوزارة السابقة .

فقال على الفور :

— اسكت اعمل معروف ... أنا طول عمرى مع الوزارة الجديدة بلسانى ، واللى فى القلب فى القلب ؛ والأعمال بالنيات ...

فابتسمت وقلت له :

— نترك السياسة ونتكلم فى الشغل ...

وأخبرته بنتيجة فحص الجثة ووجود العظم اللامي مكسورا وضرورة البحث عن المجرم فى جناية الخنق الجديدة ... وطلبت إليه أن يوجه عنايته لمساعدتنا فى الكشف عن الفاعل ... فقال فى الحال :

— المركز مش فاضى اليومين دول للخنق والحرق ...

— عجايب ... انتم لكم شغل غير المحافظة على الأمن ؟! ...

— يعنى حضرتك مش فاهم ؟ ...

— لأ مش فاهم ! ...

— نترك الانتخابات ونلتفت للقتل والخنق ؟ ...

— طبعا ...

— التعليمات اللى عندنا غير كده ! ...

وتركنى وجعل يعبث بقيود حديدية وسلاسل معلقة على حائطه ... وغمزنى عبد المقصود أفندى كى أغلق هذا الموضوع ... وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال :

— البك المأمور يسمح بطلب دفاتر السجن ...

وشعرت أن كرامة عملى فى خطر فصحت قائلا :

— لا بد أنى أفتش بنفسى السجن والمركز كله .

ونهضت فى قوة وعزيمة أزعجت المأمور فتردد ثم قال فى رفق :

— تفضل السجن تحت أمرك ... انتظر سعادتك دقيقة واحدة .

وخرج سريعا من الحجرة وهو ينادى :

— يا شاويش عبد النبى ...

واختفى عن نظرى . ودفعنى دافع إلى النظر من نافذة للحجرة تطل على فناء المركز . فرأيت المأمور والجاويش يسرعان إلى سجن المركز ويفتحانه ويخرجان منه أشخاصا تدل هيئتهم على أنهم من أهالى النواحى ذوى الرخاء ويزجان بهم فى حجرة التبن والعلف ويغلقان عليهم بابها بالمفتاح ، فقلت لعبد المقصود أفندى :

— تعالَ وطل بعينك ، ده ولا سجن الباستيل . المأمور أخفى بعض الأهالى فى أودة التبن .

فقال لى عبد المقصود فى شىء من التوسل :

— يا بك ، الوقت بطال ، والسياسة متحكمة فى البلد ، مافيش داعى للتدقيق ..

— يعنى نترك الناس فى الحبس من غير جريمة ؟! ...

— يا سعادة البك ، رئيس المأمور ولا يخفاك هو وزير الداخلية ورئيس الوزراء فى الوقت نفسه ، أما رئيسنا فهو وزير الحقانية ... فقط ، وقد سبق أن قضاة ووكلاء نيابة وقفوا للإدارة فى ظروف سياسية مواقف من هذا القبيل قاموا نقلوهم الصعيد ! ...

— يعنى نمضى على دفاتر المركز ونسكت ؟ ...

— يا سيدنا البك ، إحنا حانكون أحسن من مين ... كان غيرنا أشطر ..

— طيب ، قم استعجل لنا الدفاتر والسلام ...

١٩ أكتوبر ...

رأيت أن الطريق الوحيد بعد ذلك أن أبحث عن ذلك الخاطب الذى كان قد تقدم للبنت ريم . ولكن كيف نستدل عليه ونحن لا نعرف حتى اسمه ؟! فلنطلب إذَن إلى المركز أن يأتى إلينا بأحد الجيران لعله يعرف الخاطب . وليكن الجار امرأة ؛ فإن المرأة بطبعها فضولية ثرثارة . فما من جارة لا تعرف أسماء الخاطبين والمخطوبات فى الحارة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أكلف المركز بإحضار شاهد أو بالبحث عن مجرم ؟ إن السياسة وحدها هى كل شىء اليوم فى المركز ؛ ولن أجد خفيرا يلقى بالا إلى أوامرى الساعة . فلنتصل نحن مباشرة بالقرية ونطلب إلى النقطة أن ترسل إلينا المرأة المطلوبة . وأمرت فى الحال حاجبى فتقدم إلى آلة التليفون وأمسك بالبوق وجعل يصيح أكثر من ربع ساعة :

— يا نقطة ! يا نقطة ! ردى علىَّ يا نقطة ! البك الوكيل جنبى يا نقطة !

ولكن النقطة غضت طرفها الناعس عنا ولم تكلف نفسها عناء الرد علينا .. واشتد غيظ الحاجب وجعلت يده تحرك جرس التليفون بقوة كادت تخلعه . وهو من تليفونات المركز التى لا توصل الكلام بين المتكلم والمخاطب حتى ينقطع نفَس الاثنين من كثرة الصياح وحتى ينقطع حبل الحديث مائة مرة ومرة تشتبك خلالها حبال أحاديث أخرى من بلاد أخرى ومن مصالح مختلفة . فبينما يدور الكلام حول إرسال متهم إذا صوت يجيب فى مسألة متعلقة بتفتيش الرى وبالفتحات ونوبات الترع ، وإذا آخر يتكلم فى أنفار القُرعة ويطلب طلبات فى لهجة الأمر والنهى . على أننا اليوم لا نلقى رداً على الإطلاق . ويد الجرس فى يد الحاجب لا يقف لها دوران ، كأنه يدير طاحونة بن . ولا ينفك يصيح تارة مهددا ، وتارة متوسلا :

— أنا فى عرضك يا نقطة ! كلمة واحدة يا نقطة ! إخص عليك يا نقطة ! ردى علىَّ يا ...

فما تمالكت أن صحت فيه :

— شيء لطيف ! أنا قلت لك اطلب النقطة ، مش غازل النقطة !..

— يظهر يا سعادة البك أن النقطة خالية من حضرة الملاحظ والبلوكامين والكل كليلة ...

— النقطة خالية !...

— أيام انتخابات يا سعادة البك .

— والعمل ؟

— نتصل بدار العمدة ونطلب النفر والحُرمة .

— اتصل .

واستطعنا آخر الأمر أن نظفر بحضور الحرمة الجارة مع « مخصوص » وكان ميعاد غذائى قد حان . وكان قد أجهدنى العمل المعتاد بالمكتب . أعنى تحقيق التزويرات وقضايا الربا الفاحش والتلبس الوارد من المركز من « إيراد » اليوم ، وأكثره الآن محاضر « تشرد » ضد الأهالى غير الموالين للحكومة القائمة . وما أسهل هذا السلاح وما أقواه فى يد رجال الإدارة ، فإن كل نجل كريم من أنجال الأعيان يمكن اتهامه بأنه لا يحترف صناعة ، ويمكن بذلك القبض عليه وحبسه أربعة أيام بإذن النيابة لحين التحرى عنه وطلب صحيفة سوابقه من مصر . وأين وكيل النيابة الذى يعارض المركز اليوم فى إصدار أوامر الحبس ؟ وقمت للغداء بعد أن أصدرت من هذه ما شاء الله والمركز . وعدت بعد الظهر لسؤال المرأة ، فتكلمت كلاما كثيرا لم أخرج منه إلا أن الفتى الخاطب يدعى « حسين » وهو ليس من

أهالى البلدة ، بل من بلدة مجاورة .

ـــ اسمه حسين إيه يا ولية ؟ فيه ألف حسين فى البلد ، لقبه إيه ؟

ـــ ما اعرفش نقبه يا سيدى . البنت قالت اسمه « حسين » وأنا مالى بقى أسأل عن أصله وفصله . أنا حرمة غلبانة فى حالى ، بعيد عنك ما أكره علىَّ إلا كتر الكلام . أنا طول عمرى يا سيدى فى الحارة ما أحشر نفسى فى كلام ولا فى سؤال . وأنا مالى ، قالوا يا داخل بين البصلة وقشرتها ...

ـــ اسكتى قلبتِ دماغى فى الفارغ ، داهية تقلب دماغ اللى طلبك . يعنى لو عرضنا عليكِ الولد تعرفيه ؟

ـــ أعرفه يا سيدى . يا ندامة ! وأنا بقى خلاص انعميت ... أنا كنت اسم الله على مقامك ...

ـــ كفاية ... انت واحدة ولله الحمد لا تحبى كتر الكلام ولا ...

ـــ كتر كلام ... أبدا وحياة شرفك ... أنا بعيد عنك من يوم ...

ـــ بس !

وناديت الحاجب ، وأمرته بإخراج المرأة وإجلاسها فى الدهليز بجواره تنتظر حتى تُطلَب . وكلفته بمخابرة البلدة التى فيها الفتى ليحضروا الفتيان الذين يسمون فيها باسم « حسين » ممن تنطبق أحوالهم وأوصافهم على ما لدينا من المعلومات . وجلست أنتظر ساعة وأنا أفكر فى قيمة هذا العرض « القانونى » . إنى لا أثق كثيرا بفراسة هؤلاء النسوة . وما زلت أذكر قضية قتل أتينا فيها بزوجة القتيل وعرضنا عليهم المتهم بين أشخاص آخرين جئنا بهم عفوا من قاعة الجلسة المدنية المنعقدة فى صباح اليوم وكان من بين هؤلاء شخص منكود الطالع أتى يحمل مستندات شركته فى جاموسة ويسمع الحكم على خصمه بالطلبات . فإذا هو يجد نفسه قد زُجَّ

بين الأنفار الذين أُخِذوا من قاعة الجلسة ليقفوا فى صف طويل فى قاعة النيابة ، وقد أخرج عليهم وكيل النيابة امرأة شمطاء ، أمرها أن تبرز القاتل من بينهم . فتفرست المرأة الوجوه وهى تدق صدرها وتدعو بالويل على قاتل زوجها ، ودنت من القاتل الحقيقى ومرت عليه مر الكرام ، ووصلت إلى ذلك المسكين صاحب المستندات الذى ليس له فى الثور ولا فى الطحين ، فلكمته فى صدره لكمة كادت ترديه و « رقعت » بالصوت :

— غريمى !..

فأرتج على الرجل وقد فوجئ ثم تمالك وقال :

— يا ستى أنا اعرفك ؟

فلم تسمع إليه المرأة ومضت تولول :

— غريمى ! دمى . غريمى ...

والتفت إلىَّ الرجل كالمستجير :

— يا سيدى البك . أنهضنى . أنا عمرى لا شفتها ولا قابلتها ...

فقام وكيل النيابة ، وهو أنا ولا فخر ، بأسئلته « التجارية » المحفوظة عن ظهر قلب ، المعتبرة من « روتين » العمل التى إذا لم تُسأل أحصتها الرياسة علينا هفوة ، وإن لم يكن هناك محل لتوجيهها ، أسئلة سخيفة لا تعنى شيئا فى ذاتها ولكن القضاء يعتبرها محرجة مضيقة على خناق المجرم :

— بينك وبينها ضغائن ؟

— أبدا يا سيدى ولا أعرفها ...

فتمهلت قليلا لكى ألقى ذلك السؤال الذى يلقيه كل وكيل نيابة وكل قاض فى ثقة واطمئنان كأنما يلقى يده على الدليل المبين :

— إذن ما سبب ادعائها عليك ؟ ...

ـــ أنا عارف ! ... مصيبة على الصبح وارتمت علىَّ ...

ـــ احجزه يا عسكرى ! ...

ـــ يحجزنى ؟ ... أنا يا سيدنا البك لى قضية مدنية تحت ... اعمل معروف خلينى اروح لشغلى ...

وأُلقى الرجل فى الحبس الاحتياطى ... ونوديت قضيته المدنية فلم يحضرها بالضرورة فشطبت دعواه وجلس الرجل القرفصاء على الأسفلت ومستنداته فى يده يفكر فيما آل إليه حاله بلا مبرر ولا جريرة ...

تذكرت ذلك وقلت فى نفسى : « كلَّا لا ينبغى أن نبالغ فى قيمة « العرض القانونى » ، إن هؤلاء الفلاحين بأعينهم التى أكلها الصديد منذ الطفولة ، ومداركهم التى تركت هملا على مدى حكم ولاة من جميع الأجناس لا يمكن أن يركن إليها فى حكم أو تمييز » ... وهل هناك أعجب من « عرض قانونى » آخر قمت به فى قضية تزوير ، وكان المتهم « أفنديا » وقد وضعتُه بين أشخاص مطربشين وجئت بالمجنى عليه الفلاح وأمرته بإخراج « غريمه » من بين هؤلاء ، فتفرس فى الوجوه لحظة ثم ترك الصف بأكمله ووقف تجاهى أنا وكيل النيابة المحقق وأطال النظر فى وجهى وقد بدت فى عينيه علامات الشك الذى سيتبعه اليقين أنه وقع أخيرا على المجرم الحقيقى ، وكان حاضرا عندى وقتئذٍ أحد كبار مفتشى النيابات زائرا وقد أراد أن يشهد عملية العرض . فهالنى أن يطيل الرجل شكه فىَّ أنا فيبدو للمفتش رأى لا أرضاه ، فانتهرت الفلاح وأمرته أن ينظر فى الصف الذى أمامه ويخرج منهم المتهم . فكان اللعين يمر بالصف مَرًّا سريعا ويعود فيلقى بصره علىَّ ويفحصنى من رأسى حتى إخمص قدمى فحص المشتبِه المستريب . ولن أنسى اضطرابى يومئذ . وقلت فى نفسى : « الله يكون فى

عون المعروضين » ولم أجد عند ذاك مندوحة من أن أنهى عملية العرض فى الحال قائلا فى سرعة : « لم يستعرف المجنى عليه على أحد » وأمرت الحاضرين بالانصراف ، فخرج الرجل وهو ما زال يختلس إلىّ النظر . كلا إن تلك الإجراءات التى تتبع فى أعمالنا القضائية طبقا للقوانين الحديثة ينبغى أن يراعى فى تطبيقها عقلية هؤلاء الناس ومدى إدراكهم وقدرتهم الذهنية . أو فلترفع تلك المدارك إلى مستوى تلك القوانين !

وحضر المطلوبون وأوقفناهم فى صف طويل وأدخلنا المرأة فتقدمت وهى تقول :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم .

ولم أترك لها مجالا للثرثرة . فقد انتهرتها :

ـــ كلمة ورد غطاها يا ولية . مَن فى الحاضرين الخاطب ؟ ...

فدنت من أقرب الفتيان إليها ونظرت إليه بعينها « العمشاء » نظرة « العرضحالجى الأضبش » إلى « عريضة » يرفعها فى يده حتى تمس أنفه . وقالت له فى صوت خافت تريد ألا يصل إلى مسامعى :

ـــ أنت « يا ادلعدى » مش اسمك حسين ؟

فأدركت فى الحال مبلغ علم المرأة بما انتدبت لأجله وقلت لها فى شدة :

ـــ كل الجدعان اللى قدامك يا ولية اسمهم حسين .

ـــ قطيعة !

ـــ لفظتها المرأة فى صوت الواقع فى حيرة من أمره ثم اتجهت إلى التالى وسألته :

ـــ انت منين يا جدع انت ؟

فأجابها الرجل فى صوت هادئ :

— من امبابة يا ستى !

فقالت على الفور فى لهجة الجد :

— دى بلد الحمير يا جدعان . دا كان مرة « ادلعدى » جوزى اشترى منها حمار ...

فلم أتمالك أن صحت :

— اخرجى يا « قرشانة » يا « وحشة » يا قليلة الحيا .. ضيعت وقتنا نهار بحاله . إخص على دى شهود ...

قلتها من غيظى وأنا ليس من عادتى « القباحة » ، ولكن هذه المرأة التى أفهمتنى أنها رأت الخاطب بعينها وتعرفه إذا حضر أمامها قد اتضح الساعة أنها لا تعرف إلا اسمه وحتى هذا الاسم الأبتر « حسين » مَن أدرانا إذا كان هو اسمه الحقيقى أو أنها كلمة ألقتها على عواهنها هذه المرأة « الهجاصة » . وسألت الحاضرين عن الخاطب فلم أجد بينهم من يفهم غرضى أو من يعرف شيئا عن الموضوع . فصرفتهم . ولم أخلُ إلى نفسى وأفكر فيما ينبغى عمله بعد ذلك ، حتى فتح الباب ودخل علىَّ مساعدى آتيا من البندر حيث كان يترافع فى قضايا الجنايات التى أحلتها عليه وقد رأيت وجهه نضرا مشرقا وابتدرنى قائلا :

— البنادر هى النعيم ، يا خسارة رجعنا بسرعة إلى جحيم الريف !

— أخذت أحكام براءة ؟

— أنا نزلت فى أحسن بانسيون وصرفت ضعف بدل السفرية .

— رد على سؤالى . القضايا عملت فيها إيه !

فوجم الشاب قليلا ، ولم يكن ينتظر منى الكلام فى العمل والجد منذ اللحظة الأولى . وكان يحسن بى فعلا أن أكون به لطيفا رقيقا ، ولكن

القضية التى فى يدى أتعبت أعصابى ، أو لعل شيئا من الحسد الخفى قام فى نفسى إذ رأيت هذا الفتى عائدا كالزهرة المشرقة من ذلك النعيم الذى يقول عنه بينما أنا راسف فى أغلال الوظيفة غارق فى عمل ذى مسئولية لا يقف ولا ينتهى ، وتنبهت مع ذلك لخشونتى وأردت أن أبتسم وأتكلم فى غير القضايا .. ولكن المناسبة كانت قد فاتت ومضى المساعد يحدثنى عن القضية التى ترافع فيها قائلا : إن المتهم فيها قد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لأنه قتل رجلا فى نظير مبلغ خمسة جنيهات . فالقاتل رجل سودانى بدوى قوى الجسم يحترف إزهاق الأرواح . وقد اتفق معه أحد الفلاحين على قتل خصم له وحررت الكمبيالة بثمن « الروح » وانطلق ذلك المحترف حاملا بندقيته كما يحمل الفنان قيثارته ، ووقف بها تحت نافذة المسجد حتى دخلت « الروح » الغالية وسجدت تصلى فأرسل إليها ذلك المتربص من بين قضبان النافذة قنبلة واحدة ذات صفير من « ماسورة » أرغوله الجهنمى كانت فيها الكفاية وهى صناعة تحتاج إلى ثبات يد ، كصناعة النجارة ، فالنجار الحاذق يضرب المسمار ضربة واحدة لا عوج فيها ولا ميل ، تصيب اللوح فى الصميم . وكان مصير هذا الدم الضياع كالمعتاد ومآل القضية البراءة ، لولا خلاف دب بين البائع والمشترى . فالقاتل سلم « البضاعة » حاضرة . ولكن المشترى مطل بالثمن . ولم يطق القاتل المحترف صبرا على هذا « الزبون » المتوقف عن الدفع ، فصاح به وسط الجلسة غير مراع حرمة قضاء ولا قضاة :

— عايز أقتله لك لوجه الله ؟

وترك « زبونه » والتفت إلى هيئة المحكمة :

— اشهدوا يا ناس على قلة الشرف ، أنا برضه أستحق الشنق ؟ الل

ما قبضت مقدم . هو يخرب البيوت إلا الشكك !!

وضحكت قليلا أنا ومساعدى . وقد أبديت له ملاحظتى على هذه التجارة أو الصناعة المعروفة فى الريف . وهى الاستئجار على القتل . إن الفلاح المصرى يلجأ كثيرا إلى محترف يقتل له ، كما كان بعض ملوكنا الأقدمين يلجأون إلى الجنود المرتزقة . أهو نقص خلقى فى الفلاح يضاف إلى أمراضه الجثمانية والفكرية والاجتماعية الكثيرة . أم إنها قلة مَقدرة وضعف ثقة بالنفس منشؤها اشتغاله بأعمال العبيد من قديم فى الأرض والزراعة وترك الفروسية والجندية للمغيرين وأقربهم بنا عهدا الأعراب والأتراك . إن الملاحظ على أشهر محترفى القتل فى الأرياف أنهم من دم أجنبى . أم أن الفلاح يحب السلام ويأنف أن يزاول سفك الدماء بيده التى تبذر البذر ويخرج منها الخير . لست أدرى . إن الأمر يحتاج إلى درس خاص . ويكفينا نحن المتصلين بهذه المسائل أن لا نمر عليها بغير ملاحظة . وقد أفهمت مساعدى أن مهنتنا سخية بمادة البحث والملاحظة . وأنه طول حياته بها لا ينبغى أن يسير مغمض العينين فهى خير مهنة تكوّن الرجل تكوينا صحيحا . فوكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير فى مملكة صغيرة إذا فهم كل شىء فى هذه المملكة ، ولاحظ كل شىء ودرس الناس وطباعهم وغرائزهم ، فقد استطاع بعد ذلك أن يعرف تلك المملكة الكبيرة التى هى دولته بل استطاع أن يفهم ذلك العالم الأوسع الذى هو « الإنسانية » . ولكن كم من رجال النيابة أو القضاء : يستطيع أن يلاحظ ؟ إن قوة الملاحظة هى أيضا هبة عظيمة لا يملكها كل الناس . وقد وعى مساعدى هذا الكلام وهو على قسط وافر من الذكاء . فأطرق قليلا ثم رفع رأسه وأخبرنى أنه لاحظ أمرا استوقف تفكيره فى جلسة الجنايات ، ذلك

أن المستشارين ينطقون بادئ ذى بدء بالحكم . ثم ينصرفون بعد ذلك إلى كتابة الأسباب . والمنطق الذى يتصوره هو أن يكون الأمر على العكس . ملاحظة قيمة . ولقد أخبرنى فعلا أحد المستشارين من أهل الصراحة أنه بعد أن نطق ذات مرة بالحكم فى جناية خطيرة ورجع ليلا إلى مكتبه وورقه وملفات القضية ليكتب الحيثيات ، وقع نظره على أقوال وعبارات فى محضر جلسة اليوم ، وفى المحاضر السابقة ، وفى تحقيق النيابة استخلص منها تفكيره الهادئ الرزين فى ذلك الليل الساجى ما لو عرفه قبل النطق بالحكم لكان حكمه قد تعدل وتبدل . ولكن ما العمل الآن وقد تم النطق بالحكم وما من سبيل إلى تغييره بأى حال ؟ لا يستطيع أن يصنع شيئا . فجعل همه تلك الليلة أن يستخرج من الأوراق جميع الأسباب التى يبررها النطق بالحكم . وكم من الحيثيات الطويلة تكتب تبريرا وتدعيما لحكم سريع مضى النطق به ، لا تفسيراً لعدالة ولا تمحيصا لحقيقة ..

٢٠ أكتوبر ...

قمت فى الصباح بجرد خزينة المحكمة . فالنيابة هى التى من شأنها مراقبة الخزينة ، وعليها أن تقوم بهذا الجرد مرتين على الأقل فى كل شهر بطريق المفاجأة . ويظهر أن كلمة « المفاجأة » وضعت فى اللوائح والتعليمات من قبيل التشويق كما توضع فى إعلانات المسارح ، فهى فى العمل لا وجود لها . وقد جرت العادة أن ينسى وكيل النيابة لكثرة مشاغله هذا الجرد فلا يذكّره به إلا الصراف المقصود مفاجأته ، فهو الذى يطلب فى إلحاح حضور البك الوكيل « ليفاجئه » بالجرد فى تمام العاشرة قبل إيداع الأموال فى خزانة المديرية حتى يسدد الخانة طبقا للقانون . وفى أكثر الأحيان لا يشعر وكيل النيابة إلا وقد فوجئ هو بالدفتر الخاص بالخزينة يُعرَض عليه مع المحضر محررا باسمه « نحن فلان وكيل النيابة قمنا اليوم فجأة بجرد الخزينة ، فوجدنا بها كذا أوراقا مالية وكذا فضة وكذا أشياء ثمينة وكذا أمانات » ، فيوقع وهو لم يتحرك من كرسيه وهو يقول : « خذوا إمضا وخلوا عنى بلا وجع دماغ » غير أنى أنا شخصيا أنتقل بالفعل وأشاهد الخزينة وإن كنت أوقع آخر الأمر على كل حال دون أن أطيق صبرا على عد النقود التى توضع أمامى . وانتهيت من هذه المأمورية ، وعرجت على مخزن النيابة فى طريقى أفتشه « بالمرة » وهو عبارة عن حجرة تشبه دكان « ألف صنف » فيها من أصناف البنادق والغدارات الريفية والسكاكين والشراشر والمناجل والفؤوس والبُلَط والنَّبابيت والهرَّاوات و « اللِّبد » و « البُلَـغ » و « الجلابيب » الملطخة بالدم والطين و « الصدارى » المثقوبة بالرش والبارود ؛ كلٌّ عليه رقمه وتاريخ ضبطه ورقم القضية التى ضبط على ذمتها . وعندى أن نظرة واحدة تلقى فى مخزن نيابة أىّ بلد تدل فى الحال

على لون هذا البلد وعقليته ودرجة حضارته . ولا شك عندى فى أن مخزن نيابة « شيكاغو » مثلا لا يمكن أن يحوى مطلقا هراوة أو شرشرة .
وصعدت بعد ذلك إلى مكتبى ، فوجدت حضرة القاضى « المقيم » فى الانتظار وقد أحضر له الفرّاش القهوة ، فما كاد يرانى حتى صاح :
— خلاص الفوضى دبّت فى البلد !
فأردت أن أفتح فمى أسأله الإفصاح ، فلم يمهلنى ومضى يقول :
— راحت هيبة الأحكام !
— إيه المسألة ؟!
— المسألة يا سيدى أنى أصدرت حكما مدنيًّا ضد عمدة مِن الموالين للحكومة وراح المحضر ينفذ عليه ، تعرف حصل إيه ؟
— لأ .
— انضرب بمعرفة العمدة « علقة » لكن « نضيفة » وانحبس أربعة وعشرين ساعة فى حجرة التليفون .
— والمركز عمل لها قضية ؟
— أبدا . ما هى هنا الخطورة . لا قضية ولا مذكرة ضحكوا على المحضر وقالوا له يسحب شكواه وصرفوها .
— ما داموا صرفوها انتهينا .
— انتهينا ازاى ؟ أنا لا يمكن أسكت عن مسألة زى دى . دا اسمه إجرام ! البوليس يجرم ...
— يظهر ان حضرتك اشتقت لحرّ وجه قبلى .
— ينقلوا قاضى وجه قبلى لأنه أراد منع المركز من العبث ؟ ...
— عملوها كتير . وسبق نقلوا قاضى أقاصى الصعيد لأنه أفرج فى قضية

معارضة عن متظاهرين ضد الحكومة ، مع أن هذا القاضى كان من المحايدين البعيدين عن الأحزاب وعن السياسة . ولا يخفى أن بينك وبين المأمور سوء تفاهم عائلى وساعتها تلقى المأمور حرَّر التقارير السرية عنك واتهمك بأنك من خصوم الحكومة ، وأنك من أرباب الفتن والدسائس ، وأنك تضطهد أنصار الوزارة ، وأنك خطر على سياستها الحاضرة إلى آخر هذا الأسلوب المعروف .

— شيء جميل . البوليس يحرر التقارير السرية ضد القضاة ؟!

— حصل .

— والعمل إيه ؟

— اترك لى المسألة . أنا أتحرى من المركز بلطف وأجرى اللازم ...

— لهذا الحد تعبث السياسة عندنا بالعدالة والنظام والأخلاق ، أعوذ بالله ! شيء مخيف ...

وجعل يهز رأسه أسفا وحنقا . ثم التفت إلىَّ فجأة وقال :

— دا صحيح ، تصور فضيلة القاضى الشرعى « الضلالى » عامل اليوم أنه صديق المأمور الحميم مع أنه كان يكرهه كراهة التحريم من بعد حادثة الأجزاخانة !

فأبديت عجبى . إنى حقيقة كنت قد سمعت من المأمور فيما سمعت من أخبار القاضى الشرعى هذه الحادثة : أن أهالى البلد وأعيانها لاحظوا افتقار البلد إلى أجزاخانة « أصولية » تغنيهم عن البنادر الكبيرة فاكتتبوا فيما بينهم بمبالغ أسسوا بها أجزاخانة نظيفة كاملة الأدوات وعينوا لها « أجزجى » قانونى هو رجل سورى يسمى « جبور » ثم تباحثوا فيمن يصلح مشرفا على مالية هذه الأجزاخانة وعلى إدارتها ، ووقع الاختيار

فى آخر الأمر على فضيلة القاضى الشرعى . ومَن غير فضيلته بلحيته الوقورة وسبحته الطويلة يؤتمن فى هذه البلدة على أموال المسلمين وغير المسلمين من المساهمين ؟ ووافق المأمور على تنصيب القاضى الشرعى مشرفا وتكرّم فضيلته وتسلم مهام عمله بأن جعل مجلسه عصر كل يوم أمام باب الأجزاخانة حيث يتنحنح ويبدأ باسم الله والصلاة على نبيه وصحبه . ثم يصيح :

ـــ يا خواجة جبور . القهوة والشيشة !

ثم يجتمع عليه من أصدقائه وأقاربه الآتين من الكُفُور عدد كثير كل يوم ، فيأمر لهم بالقهوة أو الشاى . وكل هذه الطلبات طبعا على حساب الأجزاخانة . وهو لا ينسى مطلقا أن يلقى نظرة على مستحضرات المحل قبل انصرافه وهو يقول لجبور :

ـــ عندك صابون ممسّك من العال ! زجاجة « الريحة » ، « الكلونيا » دى لا بأس بها ! ...

ولا يكاد يدخل فضيلته منزله حتى تكون هذه البضاعة التى أعجبته قد سبقته إلى البيت . ويُجلِس أحيانا أطفاله إلى جواره بباب الأجزاخانة أو يتركهم يلعبون حوله فإذا جاعوا أو بكوا صاح القاضى فى الأجزجى القانونى :

ـــ يا خواجة جبور ! هات للأولاد كم قرص نعناع من عندك !

حتى ضاق ذرع الأجزجى جبور آخر الأمر . فصاح فى القاضى ذات يوم :

ـــ شو ها العما !

ونشب الشجار بين المشرف والأجزجي . وأقسم جبور أن يكسر ساق القاضي إذا حضر إلى الأجزاخانة بعد ذلك . واستغاث بالمأمور ، وعرض عليه ما وصلت إليه حالة الأجزاخانة . فإذا هي موشكة على الإفلاس ، فقد اختفت مستحضراتها ، ونضبت مواردها ولم يبق أمل فى بقائها ؛ فإن الأجزجي هو الآخر اقتداءً بفضيلة المشرف الوقور لم يقصر فى الإجهاز من جهته على الباقى من « الدرج » والبضاعة والأدوات ، وتغيظ المأمور وصاح فى الأعيان المساهمين :

— الحقّ علينا اللى صدقنا اللحية والسبحة !

ومنذ ذلك اليوم والمأمور دائم التشهير بالقاضى الشرعى ، والقاضى الشرعى من جهته دائم النَّيل من المأمور .

ولكن السياسة قد جعلت رجال الإدارة اليوم أصحاب سلطة مخيفة . وقد خشى فضيلته على نفسه ، ورأى بحكمته أن الأمان فى مصاحبة المأمور . فهل يحجم عن التقرب إليه والتزلف له ؟

مر بخاطرى كل ذلك وأنا جالس وأمامى القاضى الأهلى ، ولم أتمالك فقلت كالمخاطب نفسى :

— لا بأس من الصلح ، لكن فى الظروف الحاضرة .. فيه شيء اسمه كرامة ...

فرفع القاضى يده فى حركة ذات معنى وقال :

— كرامة مين يا « مونشير » !

ونهض يريد الانصراف وهو يميل علىَّ ويقول بصوت منخفض :

— كلام فى سرك . فى يوم حضر إلى بيتى فلاح ومعه خروف وقال « الهدية » . فقلت له : « هدية إيه يا راجل » ؟ فقال : « الهدية اللى تم عليها

الاتفاق علشان رد الوليّة مراتى » . ففهمت وقلت له فى الحال : « إنت يا رجل غلطت فى البيت إنت قصدك شخص آخر » .

فلم أبد دهشة كبرى وأطرقت برأسى . وسكت القاضى محدثى قليلا . ثم تحرك نحو باب الحجرة وحيانى بيده تحية مختصرة وذهب ، وجلست وحدى قليلا أفكر فى كل ذلك ، ورأيت أن أقوم إلى المركز فى شبه زيارة خاصة لأستطلع من المأمور عما أخبرنى به القاضى . فانطلقت بمفردى وخلفى حاجبى حتى بلغت حجرة المأمور ، فوجدته فى هذه المرة أيضا مع أحد العمد يحادثه فى شبه عنف ، ولم تكن سيما هذا العمدة تنم عن يسر ولا عن وقار ، ويخيل إلى أنه من أجلاف العمد . فالعمدة « كالجرادة » يتخذ شكل الأرض التى يولد فيها . فالأرض الخضراء تخرج الجراد الأخضر ، والأرض القحلاء تخرج الجراد الأغبر . وهذا العمدة الأغبر لا شك من بلاد قاصية فقيرة على حدود المركز قريبة من الصحارى . وسلمت على المأمور وقلت له باسما :

ـــ دايماً مع العمد !

فقال فى نبرة تعب :

ـــ نعمل إيه يا سيدى !

ثم أجلسنى وطلب لى القهوة . إذ على الرغم من اعتكافى عنه وعن ناديه ، فهو يحترمنى ولا يحمل لى ما يحمله لغيرى من الضغن ، فإنى حريص دائما مع رجال الإدارة على تنفيذ أوامرى فى مظهر بسيط لا يشعرهم بغضاضة الأمر . واستأذننى المأمور فى إتمام حديثه مع العمدة لينتهى من شأنه ويتفرغ لى فأذنت له . فالتفت إلى الرجل وقال له فى صياح وتهديد :

ــ طوّل بالك ، أنت يظهر عليك إنك مش عارفني . والله لا بد من أني ...

فقاطعه العمدة مستعطفا :

ــ أنا رجل غلبان .

فمضى المأمور فى وعيده :

ــ انتظر ! إن ما كنت أدخلك البرلمان . ما ابقاش أنا مأمور المركز !

ــ ليه.؟ أنا عملت إيه بس تدخلنى البرلمان ؟!

قالها الرجل فى توسل وارتياع . فضحكت وعجبت . والتفت إلىّ المأمور قائلا :

ــ كشوف الانتخابات فى جيبه ، ومش عارف حضرته البرلمان ده يبقى إيه . ويسموهم عُمد ، ونشتغل معهم !!

ثم عاد المأمور والتفت إلى الرجل قائلا :

ــ تفضل من غير مطرود !

فخرج العمدة ذليلا كأنه خادم أو مجرم ، وقلت فى نفسى : « هذه الذلة التى يذوقها فى حضرة رجال الإدارة لن تذهب سُدى ، فهو سيذيقها بعينها لأهالى القرية التى يحكمها ، فإن كأس الإذلال تنتقل من يد الرئيس إلى المرؤوس في هذا البلد حتى تصل فى نهاية الأمر إلى جوف الشعب المسكين وقد تجرعها دفعة واحدة » .

وجلس إلىّ المأمور يعرف سبب « تشريفى » المركز بالزيارة ، فأخبرته أنه « الشوق » فابتسم المأمور ابتسامة غير المؤمن بهذا السبب الأفلاطونى ، ولم أصرّ كثيرا على كلمتى ، وقلت فى هيئة الجد :

— بلغك يا حضرة المأمور أن أحد المحضرين ضربوه وحبسوه أثناء تأدية وظيفته ؟

فأجاب من فوره :

— ما عنديش خبر .

— حصل تبليغ للمركز ؟

— لو كان حصل كنا ضبطنا لها واقعة وعملنا قضية .

— بالتأكيد .

أطرقت قليلا ، وفكر المأمور لحظة ثم قال :

— حد بلغ سعادتك بشيء ؟

— لو كان حد بلغنى كنت فى الحال باشرت التحقيق .

— مؤكد .

— المسألة يظهر أنها مجرد إشاعة .

فانطلق المأمور يقول :

— هى وحياتك إشاعة خارجة من بطن المحكمة لتشويه سمعة المركز ، وأنت لا يخفاك أن حضرة القاضى « طالع فيها » وغرضه يشنع علينا بأى طريقة ...

وأراد المأمور أن يسترسل ، فبادرت بإغلاق هذا الباب حتى لا أزج بنفسى فى هذا الشجار القائم بينهما . حسبى أنى أفهمت المأمور من طرف خفى أنى لست بغافل عن الموضوع ، وأنى لا أحجم عن اتخاذ الإجراء اللازم فيه ، ونهضت فى الحال ، ونهض معى وقلت مازحا :

— والانتخابات يا حضرة المأمور ... ؟

— عال .

— ماشية بالأصول ؟

فنظر إلىّ مليًا ، وقال لى فى مزاح كمزاحى :

— حانضحك على بعض ؟! فيه فى الدنيا انتخابات بالأصول !!

فضحكت وقلت :

— قصدى بالأصول : مظاهر الأصول .

— إن كان على دى اطمئن .

ثم سكت قليلا ، وقال فى قوة وخيلاء :

— تصدق بالله ؟ أنا مأمور مركز بالشرف . أنا مش مأمور من المآمير اللى انت عارفهم ، أنا لا عمرى أتدخل فى انتخابات ، ولا عمرى أضغط على حرية الأهالى فى الانتخابات ، ولا عمرى قلت انتخبوا هذا وأسقطوا هذا ، أبدا ، أبدا ، أبدا . أنا مبدئى ترك الناس أحرارا تنتخب كما تشاء ...

فقاطعت المأمور وأنا لا أملك نفسى من الإعجاب :

— شىء عظيم يا حضرة المأمور ، بس الكلام ده مش خطر على منصبك ؟ أنت على كده ... أنت رجل عظيم ...

فمضى المأمور يقول :

— دى دايما طريقتى فى الانتخابات : الحرية المطلقة ، أترك الناس تنتخب على كيفها ، لغاية ما تتم عملية الانتخابات ، وبعدين أقوم بكل بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه فى الترعة ، وأروح واضع مطرحه الصندوق اللى احنا موضّبينه على مهلنا .

— شىء جميل !

قلتها فى شىء من الاستغراب ممزوج بخيبة الأمل . ولم أشأ أن أعقّب على ما سمعت . ومددت يدى مسلّما . وخرجت وخرج خلفى المأمور

يشيعنى إلى الباب الخارجى ؛ وإذا بى أرى ، وأنا أجتاز فناء المركز ، شرذمة من الخفراء تتأهب للشحن فى « اللوريات » ، ومن بينهم الشيخ عصفور بأسماله وعوده الأخضر ؛ فالتفتُّ إلى المأمور أسأله فى ذلك ، فقال وهو يشير بيده إلى الرجال :

ـــ أنفار قايمة لحفظ النظام ساعة إعطاء الأصوات .

ـــ والشيخ عصفور ما له ومال الانتخابات ؟!

ـــ مواويله تؤثر على عقول الفلاحين !

ـــ يعنى منتدب للدعاية !

فابتسم المأمور ابتسامة المصادق على ملاحظتى ، وابتسمت أنا أيضا وأنا أضيف قائلا :

ـــ حتى الشيخ عصفور شغلتوه فى السياسة !

فنظر إلىَّ المأمور نظرة ذات معنى ، وقال فى تنهد :

ـــ نعمل إيه بس !

وفى هذه العبارة وهذا التنهد كل الكفاية فى جعلى أرثى لحال هذا المأمور وأقدِّر دِقة موقفه ومسئوليته أمام الرؤساء الذين يطلبون إليه نتائج معينة بالذات بكل الوسائل التى يراها مؤدية إلى الغرض ، فإن أحجم أو تردد نكلوا به بغير رحمة ولا شفقة .

ومررت فى سيرى بجوار الشيخ عصفور فابتدرته :

ـــ البنت ريم راحت فين ؟

فنظر إلىَّ الرجل شزرا ولم يعن بالرد علىّ . فأعدت عليه الكرَّة فى شىء من الرفق والاستعطاف :

ـــ ريم يا سيدنا الشيخ . نَفَسك ويانا فى مسألة البنت ريم !
فهز الرجل رأسه ؛ ولوّح بعوده ، وقال مترنما :

إيـش راح ينـوبـك
مـن الشـكيـان ويفيـدك
ليـه مـا حكمتـش
على طيرك وهو فى إيـدك

فابتسمت وقلت للشيخ عصفور وأنا أشير بأصبعي إلى المأمور :
ـــ قل لحضرة المأمور وهو اللى استلم الطير !

٢١ أكتوبر ...

ما كدت هذا الصباح أرشف فنجان القهوة على مكتبى حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم فى دائرة المركز : امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض ، وهى تتهمه بسمِّها للتخلص من النفقة الشرعيّة . كلام معقول ، ومسألة تستدعى التحقيق من غير شك . ولكنى من جهة أخرى أعرف قضايا التسمم ، وما فيها من « قرف » خصوصا على الصبح . وأعلم أنى سأنتقل فأجد امرأة عائمة فى بركة من القىء والبراز . وكلما وجهت إليها سؤالا تلقيت جوابا ، لا من الكلمات ، بل من الـ ... أعوذ بالله ! ولم أتمالك وأخرجت منديلى وبصقت فيه . وجعلت أفكر فى إحالة هذه القضية على المساعد . وطلبته بالفعل فحضر فسلمته الإشارة ؛ فمر عليها بنظرة سريعة وصاح :

ـــ تسمم ، وأنا عمرى حققت قضايا تسمم أو حتى حضرت تحقيق التسمم !

كلامه هو الآخر معقول . خصوصا التسمم . حتى أنا القديم المتمرن . لا أستطيع تحقيق هذه القضايا إلا ومعى « الاستمارة » المنصوص عنها فى تعليمات النائب العمومى . هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لا بد من سؤالها وتلقِّى الجواب عنها . وترفق صورة من هذه الأسئلة والأجوبة مع تقرير وجيز بالقطرميز الحاوى « لعينات » القىء والبراز لإرسالها للتحليل . هذا مع عدم نسيان قص أظافر المتهم وقص جيوبه وإرسالها كذلك داخل أحراز مختومة للتحليل الكيماوى . إذ كثيرا ما تكون آثار الزرنيخ عالقة بالأظافر والجيوب . وناديت كاتب التحقيق ، وأمرته بتهيئة اللازم للقيام ، وطلبت إليه الاستمارة المذكورة ألقى عليها نظرة وأتذكر

ما فيها . فأحضرها وأحضر معها التعليمات فقرأت ما يلى :

« فقرة ١٤١ — عند إرسال الأحراز إلى القلم الطبى الشرعى ... على النيابة أن ترسل فى آن واحد للنائب العمومى ... الاستمارة الآتية بعد استيفاء جميع الخانات بالضبط :

(١) تاريخ التبليغ عن الحادثة .

(٢) اسم المصاب وعمره وجنسيته .

(٣) هل كان المصاب فى صحة جيدة قبل الإصابة ؟

(٤) الأعراض التى لوحظت : كالقيء ، الإسهال ، الألم ، العطش ، ألم الرأس ، الدوار ، فقد قوة الأطراف ، التقلصات ، النعاس ، العرَق ، التيبُّس ، حالة الحدَقتين ، النبض ، التنفس !

(٥) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص فى فمه من الطعام ؟

(٦) هل حصل للمصاب تخدير أو تنميل بلسانه أو أطرافه ؟

(٧) هل حصل للمصاب غيبوبة ؟

(٨) هل حصل له تشنجات أو التواءات بالعضلات ؟

(٩) هل ظهرت الأعراض فجأة ؟

(١٠) هل سبق أن حصل للمصاب حالة تشبه هذه ؟

(١١) الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟

ملاحظة — يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم ، أى أنه لا يقال مثلا بعد اليوم الثانى بثلاث ساعات أو فى يوم (الاثنين) بل يقال مثلا ابتدأت الأعراض فى الساعة ٤ بعد ظهر يوم ١٦ شهر كذا سنة كذا وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك فى الساعة ٣ مساء أو صباحا بالضبط ... » .

شيء جميل جدا !! كل هذه الأسئلة ينبغى أن تطرح على مصاب لا يعرف رأسه من رجليه . والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت فى الساعة كذا بالضبط . إذ لا ينبغى أن يقال مثلا يوم (الاثنين) . بل على هذا المصاب المسكين الغارق فى متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات والنعاس .. إلخ إلخ . باعتراف الاستمارة ... على هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التى لا تحمل فى جيبها ساعة وربما لم تر فى حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت فى الساعة ٣ والدقيقة ... بالضبط !!

النهاية . قمنا نصُب هذه الأسئلة على رأس المرأة المسمومة . واصطحبت معى المساعد يشاهد حتى تزول حجته فى المستقبل . غير أننا ما كدنا نتحرك حتى وردت إشارة تليفونية أخرى قدمها إلى الحاجب فقلت :

ـــ نهار باين من أوله :

وقرأت فإذا هى إخطار من المستشفى الأميرى بوفاة قمر الدولة علوان . فصحت : « مات الرجل قبل أن نعرف منه سر الموضوع » . وطلبت قلماً وأشرت فى الحال على ذيل الإشارة العبارة المألوفة فى مثل هذه الحالة : « نأمر بتشريح الجثة » . وقلت للمساعد أن يذهب لحضور التشريح وإفادتى بنتيجته بمجرد الفراغ منه . فمضى هو إلى المستشفى . ومضيت أنا إلى منزل المرأة التى أكلت الفطيرة ، وكان الأمر فعلا كما توقعت ، وجدت المرأة فى صحن الدار وحولها جاراتها لم يتركن فيما يخيل إلىَّ آنيةً ولا « حَلة » ولا « كروانة » فى الحارة إلا أتين بها ووضعنها تحت فم المصابة المطروحة أرضاً تتلوى وتحشرج . ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق فَهِم

منها أن يفتح المحضر ، وتقدمت بين الأوانى المملوءة حتى دنوت من المجنى عليها وسألتها :

ـــ اسمك وعمرك وجنسيتك ؟

فلم تجب . ولم يَبد على وجهها الباهت المتقلص العضلات أنها فهمت عنى . فأعدتُ عليها الكرَّة فى شبه صياح ؛ فلم يخرج من فمها غير أنين طويل ممزوج بشروع فى قىء جديد . وقد أسرع بعض النسوة إليها يسندن رأسها المائل بأكفهن ، وهن يتهامسن :

ـــ أيوه يسيبها فى غُلبها !

فأجبت مؤمِّناً على منطقهن وكأنى أخاطب نفسى :

ـــ والله كان بودى أتركها فى غلبها ، لكن أعمل إيه ؟ قلم النائب العمومى فى انتظار الاستمارة والقطرميز !

وتشجعت امرأةٌ لَسِنَة بين النسوة وقالت لى :

ـــ « مش ادلعدى » حضرتك طالب تعرف اسمَها ؟ اسمها نبوية .

ـــ نبوية إيه ؟

ـــ لأ ما نعرفش غير نبوية . أهى فى الحارة كنا نقول لها تعالى يا نبوية روحى يا نبوية .

ولكن هذا لا يكفى . ولا بد من كتابة اسمها كاملا ، فتوسلتُ إلى النسوة أن يساعدننى فى حملها على النطق دقيقة واحدة . فتكاثرن عليها ورفعن رأسها الذى لا يريد إلا أن يقع على صدرها وهمسن فى أذنها يرجونها الكلام وإجابة البك النيابة . وبعد ذلك باتمام حركت المصابة شفتيها فاستبشرت النسوة وشجعنها رابتات على كتفيها :

ـــ أيوه ... أيوه ، ردى علينا يا حبيبتى !

فأسرعت أصيح قرب أذنها وقد تصبب العرق منى :

ـــ اسمك ؟ اسمك إيه بقى ؟ ...

فأنّت وزامت وقالت فى صوت خافت متهدج :

ـــ اسمى ... نبوية .

فكدت أشق ثيابى :

ـــ مفهوم ! نبوية ! كويس خالص ! لكن نبوية إيه ؟ اسم « أبوك » إيه ؟ أنا فى عرض « أبوك » ! نبوية إيه ؟

ولكنى أخاطب وأتوسل إلى شبه جثة . فقد انحدر رأسها وسقط على صدرها من جديد . ولزمَت الصمت إلا من ذلك الأنين الخافت . وبلغ منى اليأس والضيق ، فصحت فى النسوة صيحة داوية فأسرعن وأنهضنها مرة أخرى ومسحن صدغيها بالماء البارد وناجينها بالكلام العذب إلى أن ظفرنا آخر الأمر باسمها كاملا . ولكن بقى فى الاستمارة عشرة أسئلة ! وإذا كان ذكر الاسم على بساطته قد اقتضى هذا المجهود ؛ فكيف بالباق ؟ خصوصا السؤال الأخير . بيان الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟ مع وجوب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة كما تقول الملحوظة !! أى أن هذه المرأة التى لم تخرج اسمها من بين فكيها إلا بعد أن كادت تخرج أرواحنا ستقول لنا عن الساعة والدقيقة بالضبط التى لاحظت فيها ظهور الأعراض أول ما لاحظت ؟ شيء جميل ، أنا مجنون أسأل هذه الأسئلة ؟ أليس فى عينى نظر ؟ ماذا تظن بعقلى هؤلاء النسوة إذا خالجنى طمع فى أن أتلقى من هذه الطريحة جوابا بالساعة والدقيقة عن الأعراض والفترة بين تعاطى المادة وظهور أول ... إلى آخر هذا الكلام المطبوع على استمارة صنعت فوق مكاتب العاصمة فى صفاء وهدوء بال ،

بعيدا عن مناظر القيء والإسهال !! وأومأتُ إلى الكاتب أن « أقفل المحضر » وأفهمته أن المصابة لم يمكن استجوابها ، واكتفينا بأخذ « عينات » القيء والبراز وقص أظافر وجيوب المتهم . ثم عدنا إلى دار النيابة حيث ارتميت على مقعدى تَعِباً .

أغمضت عينى قليلا ؛ ثم فتحتها على صوت الباب يفتح وقد دخل منه مساعدى أصفر الوجه . فأفقت من خمولى فى الحال وابتدرته :

ـــ ما لك ؟

ـــ التشريح .

ـــ آه حضرت العملية ؛ والنتيجة ؟

ـــ النتيجة أنى أنا ...

وجلس على كرسى قريب ؛ فحدقت بنظرى مليًّا فى وجهه . ففهمت كل شىء . إن هذا الشاب قد حدث له ما حدث لى يوم حضرت لأول مرة تشريح جثة آدمية . هذا الشاب الرقيق الذى خرج بالأمس من بين الكتب ؛ تلك الكتب التى أرتنا وأفهمتنا أن الإنسان شىء عظيم ، إنه هو محور الكون ، وأنه المصطفى الملحوظ دون بقية المخلوقات بعناية الخالق الأعظم ، وأنه الكائن النورانى الروحانى الذى سوف يبعث ؛ هذا الإنسان لم يتح لكثير من الناس أن يطلعوا على تركيبه من الداخل ؛ فإذا ما اطلع أحدنا على ذلك سرَت فى نفسه صدمة يختلف تفسيرها باختلاف مزاج الشخص وطبيعته وثقافته ؛ وإنى لن أنسى أبدا يوم وقفت للمرة الأولى على رأس جثة رجل أصيب فى دماغه بعيار نارى أُطلق عن قرب فكسر الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من جوهر المخ ؛ وحضر الطبيب للتشريح ، فقمت معه أشاهد ما يفعل ؛ وغادرنا الغيط

الذى وقعت فيه الحادثة ، وانتقلنا إلى دار المجنى عليه ؛ وهى دار قروية متواضعة ، وجىء بالقتيل يحمله أهله وقد لفوه فى لحاف جديد « بر شه » ومن حوله النسوة بعويلهن وصياحهن وطينهن يلطخن به وجوههن ، وكان معى مأمور نشيط أمر رجاله بإخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب وحلاق الصحة ومعاونيه ، وأتوا « بطشتين » كبيرين وضعوهما تحت « دكة » عريضة من الخشب فى صحن الدار ؛ ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق « الدِّكة » وخلعوا ملابس القتيل ، وكانت جديدة احتفالا بعيد الفطر ؛ إذ وقعت الجريمة فى اليوم الأخير من شهر رمضان ، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية أن يحل العيد وغريمه على قيد الحياة ، وحرصا منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة فى رأس القتيل ، ورغبة منه فى أن تتغير نغمة أصوات العيد وأناشيده المتصاعدة من جوف هذه الدار ، وأعملَ الطبيب المشرط حالا فى رأس القتيل وهو يملى على الكاتب :

ـــ ونزعنا الفروة (يقصد فروة الرأس طبعا) .

وعندئذ علا صياح النسوة ، وكنَّ قد تسللن وتسلقن سطح الدار والأسطح المجاورة « المعرَّشة » بحطب القطن والذرة ، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتا رفيعا حارًّا مؤثرا أوجع قلبى يصيح :

ـــ يا شجرة و « مضللانا » يا بويا !..

وتلاه صوت آخر فى مثل رفعه ولهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاء مر :

ـــ ياللى كنت خارج بسحورك فى بطنك يابه .

وتم نزع الفروة ، ووضع الطبيب أصبعه فى فتحة الجرح يسبر غوره ويعرف حدوده ، وأملى الكاتب :

ـــ جرح نارى طوله أربعة سنتيمترات ...

وحاول أن يعثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع .

فتناول منشارا من المعدن من حقيبته وجعل ينشر الجمجمة من الجبهة ليفتح الرأس فلم ينجح فى نشرها لصلابتها ، فأخذ مطرقة صغيرة من بين أدواته وطفق يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبة « سردين » وسمعت إحدى العجائز ذلك ورأت من فجوة السطح ذلك الدق و « الهبد » فى رأس رجل العائلة وعميد الدار فوضعت كفها على خدها وقالت متنهدة :

ـــ اسم الله عليه !

هذه الكلمة هزتنى . ووجدت لوقعها غرابة . إن تلك العجوز ما زالت تعتقد أن رجلهن هو رجلهن بشخصيته وآدميته ، أما أنا فمنذ لحظة قد بدأت أشك فى ذلك .

وتم نزع الغطاء أو « القرّاعة » وظهر من تحته الغلاف الرقيق الذى فوق المخ مباشرة . فمزقه الطبيب بمشرطه ، وجعل يفحص ما حول الجرح وهو يملى :

ـــ نزيف دموى شديد بأنسجة المخ ..

وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئا . واستمر فى البحث حول تلك المنطقة القريبة من الجرح فلم يعثر للرصاصة على أثر . أين ذهبت إذن ؟ وليس هنالك من فتحة أخرى يظن أن المقذوف خرج منها .

ولم ييأس الطبيب . وقال لى باسما : إن المقذوف النارى يتخذ أحيانا خطوط سير عجيبة فى جسم المصاب وأحيانا تدخل الرصاصة من البطن فلا يعثر عليها إلا فى الفخذ . قد يكون هذا معقولا . ولكن رصاصة تدخل من الرأس تستخرج من القدم ؟ هذا شغل « حواة » ولا أصدق أن الرصاصة لها

كل هذه المقدرة . واستاء الطبيب أخيرا فصاح :

— وعلى إيه ؟ آدى مخ الراجل بحاله ...

وأخرج بكلتا يديه كل ما فى الجمجمة من مخ حتى أخلاها فأصبحت مثل « السلطانية » النظيفة ، وقسّم هذا المخ أقساما أربعة أعطى كلا من معاونيه قسما وكلفهم أن يبحثوا عن المقذوف بحثا جيدا ، فجعلوا « يلغوصون » بأصابعهم فى هذه المادة التى يُعزى إليها كل نبوغ الإنسانية ، حتى صيّروها شبه سائلة كالمهلبية ؟

هذا هو مخ الإنسان !

قلت ذلك همسا لنفسى ؛ وقد بدأ الروع الذى أخذنى أول الأمر يزول عنى شيئا فشيئا . وتصلبت أعصابى وهمد إحساسى وتيقظ فى نفسى حب استطلاع ورغبة فى أن يفتح أمامى كل هذا الجسم المسجى لأنظر فيه . وما دمت قد رأيت المخ هكذا فلنر القلب ولنر الكبد ولنر الأحشاء ، لم يعد هذا الرجل فى نظرى رجلا ، إنما هو ساعة حائط كبيرة ممدد أريدُ أن أفتحها لأشاهد آلاتها وتروسها وعجلاتها وأجراسها .

ولم يجد الرجال شيئا كذلك بعد البحث الطويل . إنه لَسُوء حظ كما قال الطبيب ، ولكنا مطالبون بالنتيجة على أية حال . ها هو ذا القتيل ولا بد أن تكون الرصاصة فيه . وشمر الطبيب عن ساعد الجد والضيق وأعمل المشرط فى ذلك الجسد ، وأنا من خلفه أشاهد وأقول :

— اقطع ! اشرُط ! ...

وأخذتنى حمى غريبة وفقدت كل شعور إنسانى فجعلتُ أقول للطبيب : أرنى رئتيه ، أرنى أمعاءه ، أرنى الطحال .. إلخ إلخ . ولم يتردد الطبيب . وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القلب ثم الأمعاء وأملى :

— وحدنا القلب سليما ، والأمعاء بها طعام مهضوم ، ولم نعثر مع كل ذلك على شيء . ففكرنا مليًّا . فاتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لاتساعه وثقلها وسقطت بسقوطه على الأرض .

وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث فى نفسى من انقلاب . أنا الرقيق الحس أرى الجَزْر والتقطيع ، بل وآمر به ولا أرتعد ! ثم أىّ خيبة أمل ! لقد كنت أحسب الإنسان أعظم من ذلك ! كلا ، لا ينبغى أن نرى أنفسنا من الداخل . إن صورة ما رأيت لا يمكن أن تزول من مخيلتى . ولا ريب أن تلك المناظر قد أحدثت فى نفس مساعدى أحداثا . وأردت أن أسأله فى ذلك . ولكن الباب فتح وظهر حاجبى ومعه إشارة تليفونية فقلت :

— اللهم خيرا !

وتناولت الإشارة وما كدت ألقى عليها نظرة حتى صحت :

— البنت ريم ؟! ..

فأسرع مساعدى متلهفا :

— ما لها ؟

— وجدوا جثتها فى الريَّاح قِبلى البلد ؟

— وماتت ؟

— قلت لك وجدوا جثتها ، خذ اقرأ الإشارة !

فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بعينيه حتى وصل إلى آخر عبارة وهى « ويحتمل أن سبب الوفاة اسفكسيا الغرق » ، وقفَت عيناه عليها لحظة من التأثر ، وكنت أنا أشد منه حزنا على انطفاء حياة هذا الشيء الجميل بهذه السرعة .

وأطرقت قليلا أفكر فى سوء حظنا ، لا من حيث العمل ، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية ؛ بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعا عاقلنا ومجنوننا ، ومخلوقا حلوا منحنا أُوَيقات حلوة ولحظات مشرقة ، ونسيما عليلا هب على صحراء حياتنا العاطفية المجدبة فى هذا الريف القفر .

واستيقظت من تفكيرى ، ورفعت رأسى ومددت يدى إلى مساعدى أسترد الإشارة وأخط عليها العبارة المألوفة : « نأمر بتشريح الجثة » ، وفجأة تنبهت إلى فظاعة هذه العبارة ، نعم لأول مرة أجدها فظيعة ، طالما شرحنا جثثا ، فليكن ، وإنى لعلى استعداد لتشريح نصف أهالى هذه البلدة ، أما هذه الفتاة ... أما هذا الجمال فحرام أن نمزقه ونرى ما بداخله ، ولمح مساعدى نص الإشارة بنظره الحاد فصاح :

ـــ أظن ناوى تقول لى احضر التشريح !

ـــ ومين غير حضرتك ؟!

ـــ مستحيل ، أنا أولا كفاية علىَّ تشريح الصبح ! حرام ! أقعد طول النهار أشاهد فتح جثث ! أنا مساعد نيابة مش مساعد حانوتى ! ثانيا البنت دى بنوع خصوصى ...

فتأملت قوله ، وعذرته ، وأطرقت لحظة ثم قلت :

ـــ لك حق ، ريم بنوع خصوصى ! من له قلب يحضر ... أنا لو دفعوا لى عشرين جنيها .. ! هات الإشارة نشطب على التشريح ونأمر بالدفن ونخلص ...

والواقع أن فى أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن نتعرض للنقد والمسئولية ، فالطبيب الذى كشف عن الجثة عقب استخراجها من النهر قرر أن الوفاة

من اسفكسيا الغرق ، أى أنه لم يجد آثارا مشتبها فيها تدل على أن الوفاة جنائية ، فإجراء التشريح فى هذه الحالة دقة لا مبرر لها ، آه لرجال الفقه والقانون أصحاب الغرض ! إنهم يستطيعون أن يتصرفوا على كل وجه تصرفا منطقيا مقبولا ! وما كدت أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق حتى سمعنا صياحا فى الطريق ، فقمنا إلى النافذة ، فإذا بنا نرى الشيخ عصفور يجرى فى الطريق ، عارى الرأس بدون عوده الأخضر ، والصِّبية والغِلمان وجمع من الأهالى خلفه وهو يصيح كالمجنون :

ورمش عينها يا ناس
يفـرش على الميَّـه
واحدة بياض شفتشى
والتانيـة بلطيـه
والتالتة من بدعها
غرَّقهـا فى الميَّـه

وصار يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة كالزئير ، وتارة فى حركات كحركات خطباء المساجد وهو يمشى أحيانا ويرقص أحيانا ويجرى فى كل جهة حتى اختفى عن أنظارنا ، فلبثنا عند النافذة صامتين مأخوذين ؛ ثم انتبهنا بعد لحظة وعدنا حيث كنا من الحجرة ونحن نقول كمن يخاطب نفسه :

ـــ مسكين !

وعدت إلى الإشارة ، وأمسكت بالقلم من جديد ، ولكن الشك والقلق خالجانى ..

ـــ سمعته لما قال : « غرَّقها فى المَيَّـه » ! من اللى غرَّقها ؟!

فقال المساعد :

ـــ دى « هلوسة » مجانين ! حانفتح تحقيق بناء على « خطرفة » رجل مخبول فى الشارع ؟! أظن الأحسن ندفن البنت وننتهى !

فمحا قوله ترددى ، وضغطت على القلم ضغط العزم والاقتناع وخططت أمر الدفن وأنا أقول :

ـــ صدقت ، أنا حتى نفسى انصدت عن القضية وأصحابها !!

٢٢ أكتوبر ...

استيقظت اليوم متأخرا . فقد سهرت أكثر الليل فى التهام الأوراق المتأخرة . إذ بعد أسبوع تبدأ السنة القضائية الجديدة . ومعنى هذا أنه لا ينبغى أن تبقى عندى قضية واحدة لم يتم التصرف فيها من قضايا العام المنصرم . ومعنى هذا أيضا أنه يجب أن أحبس نفسي طول هذا الأسبوع حتى أنظر فى المتأخر من أكداس « الشكاوى » التى فاضت بها خزائنى .. آه من هذه الشكاوى ! إنها أكثر عددا من ذلك « البَق » الزاحف جيوشا على حائط دار النيابة الرطب المتهدم ! يخيل إلى أن الشكاوى لا تنزل على رأسى كالوابل إلا أيام الأسواق ؛ كأن الفلاح إنما يخرج إلى سوق الخميس من كل أسبوع يبيع كيلة ذرة ليشترى قليلا من السكر والشاى ويملأ زجاجة « السبرج » ويستكتب أحد الكتبة العمومية « بلاغا » أو « عريضة » ضد مأذون الناحية أو العمدة أو وكيل شيخ الخفر . ولعل هذا أصبح بندا ثابتا فى ميزانية كل خارج إلى السوق من هؤلاء الفلاحين . لست أدرى لذلك من سبب . أهو الظلم حقا ! أم هو داء الشكوى استوطن دم الفلاح على مدى أحقاب من الجور مرت به حقيقة ! على أى حال ، ما ذنبى أنا أجرع ما فى هذه الأوراق من سخف . يظهر أن حضور جلسات المحاكم وضبط قضايا التلبس فى النهار ، وقيد وارد الجُنَح والمخالفات فى المساء ، والانتقال لتحقيق وقائع الجنايات بالليل ، كل هذا لا يكفى وكيل النيابة فى الأرياف ؛ فهو ما زال يجد وقتا يتنفس فيه ... فلتسد عليه إذن مسالك الهواء بأكوام الأوراق التافهة الآتية من المركز باسم « الشكاوى » و « العوارض » و « الأحوال » . ومعنى هذا أيضا أنى أنا الشخص الضعيف الجسم والبنية الدقيق الحس والشعور الذى يتوق إلى

نصف الساعة يفرغ فيها إلى مطالعة كتاب جميل ، ينبغى لى أن أقرأ أيضا ما جرى بين « ست الدار » وجارتها « قطايف » من تبادل « الردح » والسّباب وما تلقاه المركز من بلاغات فقْد الأختام و « محاضر » البحث الجارى عن جحش هرب من أمام الباب ، وإصابة قدم طفل داس على قطعة زجاج ، وسقوط فرع جميزة على رأس كبش الحاج هباب ! إنى والله لأعذر ذلك النائب فى الصعيد الذى قيل إنه كان يعبر النيل فى قارب للوصول إلى مقر عمله وكان معه حمل من هذه « الشكاوى » حار فى أمره فأومأ إلى صاحب القارب ، فمال بقاربه على أحد جنبيه ميلا أسقط « الشكاوى » فى الماء ! ويزيد فى بلائى أكثر من هذا الحاج عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى . فهو المنوط بإرسال « كشوف » القضايا فى مواعيدها إلى النائب العام ووزارة الحقانية . هذا الرجل لا أرى له عملا عندى غير التنقل بين الحجرات حاملا فى يده ورقة يأمر هنا وينهى هناك . حتى عملية « التنفيذ » التى من نصيبه قد ألقى بعبئها على غيره من مرؤوسيه واكتفى هو « بمهمة » الصياح فى الكتبة والحجّاب . وهو أول من ينصرف من الموظفين واضعا على طرف أنفه عويناته الذهبية ، يرسل من خلالها نظرات صريحة إلى المجتمعين فى أروقة دار النيابة من وكلاء المحامين وأرباب القضايا كأنما يستحثهم على الوقوف له . ولا حديث عنده إلا ذكر علاقاته وصلاته بكبار الموظفين ، يقول ذلك فى زهو وانتفاخ . ولطالما طلبت إليه حسابا عن عمله فيجيبنى دائما :

— أنا والله الحمد لا أميل إلى الأبهة ولا إلى الفخفخة !

ترانى سألته فى ذلك ؟ لم يحدث قط : يخيل إلىّ أن مِن الناس مَن يلقى الكلمة يدفع بها عن نفسه فإذا فيها الاتهام الصارخ ولعل كل منهم يحمل فى

طيات كلامه دليل إجرامه ، كما يحمل المريض فى دمه جراثيم دائه !!

لا بد إذن من العمل المضنى حتى تختم السنة القضائية على خير ، وقد أمرت بإغلاق أبوابى علىَّ حتى أنفرد لهذه الملفات أتصرف فيها باليمين وبالشمال ، ومضيت أعمل وأنا أقول : « خد من التل يختل » ! ولكن الذى وضع هذا المثل كان يقصد بالتل النقود والذهب . أما أوراق « الشكاوى » فهى تل دائم النمو ، لا يختل ولا يزول .

وهل تنقطع للإنسان « شكوى » على هذه الأرض ما دام هو إنسانا ؟! ونسيت نفسى فى العمل ، فلم أسمع إلا طرقة خفيفة قيل إنها وقعت على الباب . ولكنى رأيت رجلا أنيقا فى وسط الحجرة يبتسم لى وخلفه حاجب يحمل حقيبتين . عجبا ! هذا زميلى وكيل نيابة طنطا ! ماذا أتى به ؟ وما هذه الحقائب ؟ ولم يترك لى زميلى وقتا للتساؤل . فقد أشار إلى حاجبه أن يضع الحقيبتين على الأرض وينصرف . وما إن صرنا وحدنا حتى جثا على قدميه أمامى فى حركة تمثيلية وقال :

ـــ أنا وقعت من السما وأنت تلقفتنى !

فنظرت إلى يدى الهزيلتين ثم إلى جسمه الممتلئ :

ـــ أنا تلقفتك ؟ ونزلت « صاغ » سليم !

ـــ اسمع ! الموضوع جد . أنت رجل معروف بيننا جميعا أنك صاحب همة ومروءة و ...

هنا لعب فى « عبِّى الفار » وأدركت أن هذا الزميل قد ترك مقر عمله طنطا فى هذا الوقت العصيب وقت مولد السيد البدوى وما يتبعه من ازدحام المدينة بأفواج الوافدين وكثرة الحوادث والوقائع التى تصحب عادة كل مولد وكل ازدحام . ترك ذلك وأتى إلىَّ يطلب ولا شك إلى همتى

ومروءتى معونة كبرى ! ترى ما نوع هذه المعونة ؟ وخامرنى قلق ، وأردت أن أعرف سريعا ما يريد منى حتى أطمئن فقلت :

ـــ أنا فى خدمتك !

فما كاد يسمع هذه الكلمة المشجعة حتى قام إلى رأسى يقبله ويقول فى صوت كصوت « الشحاذين » :

ـــ ربنا يخليك ويبقيك ويمد فى عمرك و ...

ثم تركنى وأسرع إلى حقائبه وقال لى :

ـــ تسمح ؟

فقلت له وقد حمدت له فى نفسى ذوقه ومراعاته اللياقة فى الزيارة :

ـــ والله ما كان فيه لزوم تكلف نفسك هدية .

وفتح إحدى الحقيبتين وأنا أتوقع أن أرى فيها على الأقل حمصا من حمص السيد البدوى وفى الأخرى حلاوة المولد ... ولكنه أخرج أحمالا من أوراق « الشكاوى » ووضعها على مكتبى وهو يقول فى تواضع :

ـــ هديتنا على قدنا .

فنظرت إلى الأوراق فى روع وتمتمت :

ـــ أعوذ بالله !

وجعل هذا الضيف يخرج الأكداس تِلوَ الأكداس وهو يقول :

ـــ النبى قبل الهدية !

فلم أجد ما أقول لهذا الإنسان الذى يصر على أن يسمى هذه « السخرة » هدية ، ولعنت فى نفسى قولهم إن « النيابة لا تتجزأ » هذا المبدأ الذى نسير عليه ؛ وهذا النظام الذى يفرض التضامن بين كل أعضاء النيابة ، ويعطى الحق لوكيل نيابة أسوان أن يتصرف فى قضايا وكيل نيابة

الإسكندرية دون أن يبطل تصرفه اختصاص مكانى أو زمنى . لعنت ذلك ولعنت الضيف ولعنت نفسى إذ أن لى حقيقة من سوء حظى صيتاً بين زملائى .. بأنى من أصحاب الهمم خصوصا فى الشكاوى الإدارية وسرعة التصرف فيها . وقد نقل عنى الكثير من إخوانى أعضاء النيابة طريقتى فى قراءة الشكاوى . فهم يقولون إنى أقرأ الشكوى من آخرها لا من أولها وهذا صحيح فأنا لست مجنونا حتى أقرأ الأوراق من أولها كما يقرأ الناس والعقلاء ! لو فعلت ذلك لما انتهيت . ولكنى أضرب صفحا عن الديباجة وما فيها من « أنتم يا ملاذ العدل ويا نصير الحق ويا مبيد دولة الظلم ويا ماحق ... إلخ إلخ » ، وأنظر فى الحال إلى السطر الأخير ففيه عادة لب الموضوع . وهذا اللب أيضا قلما أجده لبا ، وكثيرا ما يجرى فيه قلمى بالكنس ، أى « بالحفظ » فى سرعة وجرأة وهمة أطمعت فىَّ الزملاء الموروطين الغارقين فى بحار هذا « الواغش » ، ولكنى اليوم آخر من يعين الناس . إنى أنا نفسى فى حاجة إلى المعونة . وإن هبوط هذا « الضيف » علىَّ كما تهبط المصيبة لأمر شاق على النفس . ولم أتمالك ، وتجهمت للشكاوى الخارجة من الحقائب وقلت فى سخرية المغيظ :

ــ يا سلام ، يا سلام على حمص الموالد ! حاجة تشرح القلب صحيح .

فقال الضيف وهو ينفض يديه من آخر ملف :

ــ كان غرضى أجيب لك شوية حلاوة ...

فقاطعته صائحا مرتاعا :

ــ من الصنف ده ؟!

فاستمر فى قوله باسما :

ــ لكن والله غاب عن فكرى فى آخر لحظة ...

ــ الحمد لله جات سليمة ! ...

فضحك الزميل المحترم . وجاءت القهوة فشرب هنيئا ثم قام فدار دورة فى الحجرة واقترب من النافذة كعادته التى أعرفها عنه وأطلق بصره فيما حولنا من منازل قليلة وغمز بعينه .

ــ فى البيت ده بنت حلوة !

فبادرت إليه وجذبته من ذراعيه بعيدا وأنا أقول له :

ــ كنت فاكرك عقلت وبطلت الهلس !

فقال باسما وهو يعود إلى الحجرة ويجلس على مقعد :

ــ أبطل ازاى ، « البصبصة » فى دمى !

وجعل يذكرنى بأيام « ديروط » حيث كنا نعمل معا فى نيابتها ، وطلب منى سيجارة طفق يدخنها ويقول :

ــ فاكر فى ديروط لما كنا نقف فى الشبابيك نبحث بعيننا فوق الأسطح عن قميص حريمى مشغول « بالتنتنة » لأجل بس نطمئن على وجود صنف النسوان فى البلد !

الواقع أنها بلاد قريبة من الفطرة والوحشية ! هذا الوجه القبلى من مصر شىء مخيف لساكن الوجه البحرى ، إن المرأة هناك شبح لا يُرَى ولا ينبغى أن يرى . وهى مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل . كلاهما شىء لا أثر للرقة فيه . وكلاهما فى الجسم والطبع والروح كتلك الأرض السوداء التى يعيشان عليها وقد جف عنها النيل فى زمن التحاريق ! آدميون قد جف عن تركيبهم ذلك الماء الذى فيه سر امتياز الآدميين .

ونفخ صاحبى الدخان من أنفه وفمه ثم استطرد :

ـــ لعنة الله على دى بلد ! أنا أراهن أن تسعة أعشار أهالى ديروط لو تكشف رءوسهم تلقى معمول لهم جميعا عمليات « طربنة » من ضربهم فى بعض بالنبابيت .

فصادقت برأسى على قوله ثم زدت :

ـــ وأبنوب ؟

ـــ ألعن !

قالها فى إشارة من يده أضحكتنى وذكرتنى بشىء قرأته عن هذه البلدة : إحصائية صدرت فى أوربا أو أمريكا (لست أذكر على التحقيق) غرضها بيان الإجرام فى العالم ؛ ورد فيها أن « شيكاجو » أكثر بلاد الأرض فى عدد جرائمها ، وتليها مباشرة « أبنوب » وبعدهما بقية مدن العالم الشهيرة . وقد حسبت وقتئذ أن « أبنوب » هذه مدينة فى أمريكا ، لولا ملحوظة فى هامش الإحصائية ذكرت أنها من بلاد الوجه القبلى بالقطر المصرى . دهشت عند ذلك أن تكون لهذه البلدة الصغيرة هذا المقام العظيم بين مدن الدنيا الشهيرة ، وإن كان هذا المقام فى عالم الإجرام !! « شيكاجو » و « أبنوب » قطبا الغريزة السفلى على هذه الأرض . الأولى إجرام الحضارة ! والثانية إجرام البداوة ! كل له طابعه ومميزاته : إجرام الحضارة قد ارتدى هو أيضا ثوب الحضارة بأسلحتها وأغراضها وأسبابها ! هنالك الجريمة المتحضرة تخرج فى سيارتها المصفحة حاملة « المسدسات » و « المترابيزات » و « المفرقعات » لتهجم على أضخم « البنوك » وبيوت المال ثم تعود إلى مكمنها بثروات طائلة من الجنيهات ! .. وهنا الجريمة الفطرية تخرج متدثرة فى عباءتها حاملة هراوتها أو فأسها أو بندقيتها لتسفك دم رجل ضعيف انتقاما لعرض أُهين فى نظر التقاليد والعادات . هنالك

الثروة والمال ، وهنا التقاليد والعادات . هذا هو الفرق بين الحضارة والفطرة بين ما يشغل بال الرجل المتحضر وما يشغل بال الرجل المتأخر ! نعم ، إن الشر هو دائما الشر . ولكن الشر الناتج عن سبب كبير لأجدر بالتقدير من شر نشأ عن سبب تافه حقير ! إن الحضارة العظيمة لا تزيل الشر ولا تمحو الجريمة ، ولكنها توجد الشر العظيم والجريمة العظيمة !

والتفتُّ إلى زميلي المطرق وقلت له :

ـــ أنا روحي طلعت خلاص ! زهقت من حاجة اسمها أرياف ! زهقت من أصناف « اللبد » !

ـــ ازهق على كيفك !

ـــ أنا اشتقت لمصر ! نسيت شكل عاصمة بلادى ، أحب يا ناس أغير نوع الجريمة ، وأشتغل مع مجرمين لابسين سترة وبنطلون !

ـــ حركة التنقلات فى نوفمبر .

ـــ أظن عليَّ الدور أنتقل لمصر .

ـــ النقل لمصر مش بالدور يا حبيبى عندك واسطة ؟

ـــ لأ .

ـــ حاتعيش وتموت فى الأرياف .

ـــ وإخواننا اللى قاعدين متمتعين فى مصر بقى لهم سنين ؟

ـــ تشملهم كذلك حركة التنقلات ، لكن على الوجه المفهوم وعلى الطريقة المعتادة : وكيل نيابة الموسكى ينقل إلى نيابة الأزبكية . ووكيل شبرا إلى نيابة الخليفة . ووكيل السيدة زينب إلى كلية مصر ؛ يعنى تنقلات، مع مراعاة عدم خروجهم من « الجنة » أى العاصمة . ومع ذلك تجد حضراتهم غير راضيين ؛ لأن بعضهم يقول لك : « شبرا ! يا سلام شبر

بعيدة جدا جدا عن بيتى فى الزمالك » ، والآخر يقول لك : « ازاى أروح نيابة السيدة ؟! حى ديمقراطى قوى !! » ، أما حضرتك وحضرتى ، فأنت إن شاء الله من هنا إلى « الفشن » من غير كلام . وأنا من طنطا إلى « طما » أو « منفلوط » من غير كلام . وإن فتح واحد منا فمه بالشكوى أو الاحتجاج هبّوا فينا : « إيه دلع أعضاء النيابة ده ! تفضلوا روحوا نياباتكم بلا دلع !! » .

فأطرقت طويلا فى حزن وغم ، ولم أجد فى يدى غير التمسك بالصبر حتى لا أضيف على بلائى بلاء وقلت متنهدا :

— أمرنا لله ! لنا رب ! لكن ده شيء يصد النفس عن الشغل ..!

لفظت ذلك لما وقعت عينى على أكوام الأوراق التى لا بد من إنجاز التصرف فيها فأحسست أن رغبتى فى العمل قد فترت . فقال صديقى :

— الشغل ... هو آخر شيء يهم أسيادنا الرؤساء الكبار ! المحسوبية أولا ، ومصلحة العمل أخيرا ، وكون نفس حضرتك تنسد أو تنفتح للشغل مسألة غير مفهومة بالمرة ولا مهمة بالمرة عند أسيادنا الكبار !

ونظر الزميل فى ساعته ثم نهض سريعا مستأذنا فأمسكت به فى لهفة ، ففى وجودنا معا وتقليب ذكرياتنا بعض الراحة والعزاء :

— اقعد ! انت رايح تتغدى عندى النهارده !

— مستحيل ! نيابتى فاضية ووقت مولد أرجوك تسامحنى ...

وشكر لى ومد إلىّ يده وودعنى بسرعة وهو يقول مشيرا إلى ملفات الشكاوى التى جاء بها :

— على الله نفسك تنفتح على الكمْ ورقة الهدية ... ويبقى لك عندى

المرة الجاية الحلاوة ... حلاوة بصحيح : حمصية وسمسمية وبالجوز واللوز والفستق و ...

— طيب رُح بقى ، ريقى جرى مقدما ...

وشيعته باسما إلى باب حجرتى حتى اختفى فرجعت إلى ما كنت فيه ولكن فى شىء من التثاقل والضيق والكآبة ، وألقيت نظرة أخرى على « الشكاوى » ورأيت أن أمضى فى عملى وأن لا أضيع الوقت فى تبرم لا فائدة منه ، لا يشعر به أحد ولا يراه أحد غير تلك الحيطان الأربعة التى تحبس روحى وأنفاسى وأمسكت بالقلم ، وتناولت من الكوم ملفا وفتحته . وقرأت : « يا ملاذ العدل ... » فما تمالكت أن ضحكت بصوت مرتفع ضحكة مُرَّة .. أنا ملاذ العدل ؟ أين هو العدل ؟ إنى لا أعرفه ولم أره . لأن أحدا لم يعطنيه ! إنهم يطلبون إلىَّ أن أنظر فى شكاوى الناس ولا يتنازلون هم إلى النظر فى شكواى وشكوى المئات من زملائى ! وأجريت القلم فى الأوراق أوسعها « حفظا » ! ودخل علىَّ عبد المقصود أفندى يحمل ملفات ضخمة فقلت مرتاعا :

— إيه كل ده ؟

— الجُنَح الباقية على التصرف ..

ثم التفت خلفه ونادى الحاجب :

— هات الجنايات يا جدع !

ونظر إلىَّ قائلا :

— حانعمل إيه فى الجنايات الباقية ... ؟

ووضع أمامى ملفات قرأت على غلاف أحدها : قضية « قمر الدولة علوان » . فتذكرت أن الفاعل فى هذه القضية لم يُعرف .. لم يُعرف ،

طبعا لم يُعرف ولن يُعرَف . وكيف يراد منا أن نعرف متهما فى قضية غامضة كهذه القضية وكل من المأمور والبوليس « ملبوخ » من رأسه إلى قدمه فى تزييف الانتخاب ، وأنا « ملبوخ » فى قراءة شكاوى وجنح ومخالفات وحضور جلسات ! لو أن لدينا « بوليس سرى » على النظام الحديث ، وقاضى « تحقيق » ينقطع لقضايا الجنايات كما هو الحال فى أوربا والعالم المتحضر ! إنهم هناك ينظرون إلى أرواح الناس بعين الجد . أما هنا فلا أحد يأخذ ذلك على سبيل الجد . وإن الأموال لتنفق هنا بسخاء فى التافه من الأمور ، وأما إذا طلبت لإقامة العدل أو تحسين حال الشعب فإنها تصبح عزيزة شحيحة تقبض عليها الأكف المرتجفة كأنها ستلقى فى البحر هباء . ذلك أن « العدل » و « الشعب » ... إلخ إلخ . كلمات لم يزل معناها غامضا عن العقول فى هذا البلد . كلمات كل مهمتها أن تكتب على الورق وتلقى فى الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التى لا يحس لها وجود حقيقى ، فلماذا ينتظر منى أنا أن آخذ على سبيل الجد روح « سى قمر الدولة علوان » ؟! إن هذا المجنى عليه قد مات وانتهى مثل غيره من مئات المجنى عليهم فى هذا المركز والمراكز الأخرى فى القطر ، ذهب دمهم جميعا أرخص من المداد الذى حبرت به محاضر قضاياهم ، وانتهى ذكرهم عندنا « رسمياً » بذلك الإجراء الأخير البسيط : « تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ويكتب للمركز باستمرار البحث والتحرى » فيجيب المركز بعبارة مألوفة محفوظة يحررها كاتب الضبط فى حركة آلية وهو يقضم « شرش جزر » : « جارين البحث والتحرى ... » وهى كلمة الوداع التى تقبر بها القضية نهائيا . لقد كان فى قضية قمر الدولة « قمر » مضىء ميز فى أعيننا هذه القضية عن غيرها وحبب إلينا العمل والجهد

فى سبيلها . ولقد اختفى هذا القمر إلى الأبد وترك القضية ومحققيها فى الظلام ! بل إنه بذهابه قد زال عنها ذلك الاعتبار الخاص فأصبحت قضية عادية كمئات القضايا التى لا يعنينا من أمر أشخاصها شىء . وللقضية ، أى لذلك « الملف » المادى من الورق المكتوب « شخصية » قائمة بذاتها فى نظر رجال العدل . وإن ما يعنى جهاتنا الرئيسية هو ذلك « الملف » وسرعة التصرف فيه . وإنه لن يعيبنا شىء إذا حفظنا القضية ، ولكن العيب كل العيب أن تظل هذه القضية باقية قيد التصرف ويثبت ذلك فى « الكشوف » المرسلة إلى النائب العام والوزارة آخر السنة القضائية . أىّ عار عند ذلك وأىّ إهمال ينسبان إلى وكيل النيابة ؟! وأىّ مكاتبات مستعجلة تسقط على رأسه من جميع الجهات عن سبب بقاء هذه القضية قيد التصرف ؟ فإذا أجاب بأنه لم يستوف بعد أبحاثه فيها للوصول إلى معرفة الفاعل وأنه مواصل بحثه ومصر عليه لا يعتبر ذلك عذرا ، وسفهه زملاؤه وحسبوه « غشيما » ونصحوه بأن « يحفظ » القضية « مؤقتا » حتى تعتبر « متصرفا فيها » ، فالجهات العليا يهمها ويطمئنها « التصرف » فى القضايا ، أى « نفض » اليد والفراغ منها على أى صورة وعلى أى وجه ، حتى تستطيع تلك الجهات أن تدون فى الإحصائيات : « وقع فى القطر هذا العام عدد كذا جنايات تم التصرف فى عدد كذا منها ... إلخ » . وكلما كان عدد القضايا التى تم فيها التصرف كبيرا كان ذلك دليلا ناصعا على نشاط رجال العدل وغيرتهم على استتباب الأمن وحسن سير الدولاب الحكومى !!

وأشار عبد المقصود أفندى إلى الملفات وقال :

— قبل كل شىء يا سعادة البك تصرف لنا فى الكم جناية الباقيين لأجل أسدد كشف الجنايات وأصدره للباشا النائب والوزارة ! ...

ـــ بس كده ؟ حاضر !

وغمست القلم فى المداد وتناولت القضية الأولى وهى قضية « قمر الدولة » :

ـــ طالب تصرف ، خد تصرف !

ثم كتبت فى ذيل المحضر الإشارة المعهودة :

« تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ... إلخ إلخ » . وسحبت « الجنايات » الأخرى وفعلت بها مثل ذلك وناولتها رئيس القلم الجنائى وأنا أقول له فى نبرة خرجت ساخرة مريرة على الرغم منى :

ـــ مبسوط ! أدحنا خلاص سددنا كشف الجنايات !

انتهى

يوميات نائب فى الأرياف فى نظر النقاد الأوروبيين

تحت عنوان « نائب فى ريف مصر » علق الكاتب الصحفى الفرنسى المشهور « جان لا كوثور » على الطبعة الأخيرة من الترجمة الفرنسية لـ « يوميات نائب فى الأرياف » فى باريس ... فى مقال نشرته صحيفة « الموند » بتاريخ ١٥ يناير ١٩٧٥ ... قال :

فى توفيق الحكيم يتغلب الكاتب القصصى والشاهد قوى الملاحظة ، خفيف الروح ، مع أقدم مدنية قامت على الزراعة ... والكتاب هو تحفته التى أخرجتها دار مصرية للنشر منذ ثلاثين عاما ، يقدمه « جاستون ويت » و « سليم حسن » فى الثوب الأنيق المعهود وبعنوان « يوميات نائب فى الأرياف » ... لكن بعد شيء من التعديل ... لست أدرى لماذا ؟!

على أن مدير النشر « جان مالورى » كان موفقا تماما عندما نشره فى مجموعة الإنسانيات ليجاور توفيق الحكيم خلاصة الكتّاب الذين كتبوا فى هذا المجال ... فالكتاب هو قبل كل شيء وثيقة « انثروبولوجية » عظيمة ... وصورة من أكثر الصور أمانة ، وأبلغها تأثيرا ، لمجتمع القرية فى مصر ... بسيئاته ومباهجه ... بحماقاته وروح التكافل التى تثير الإعجاب فيه ... خلافاته وتماسكه ... وإخلاصه لكل هذه السمات فيه من زمن بعيد ...

ولأن توفيق الحكيم متفائل فى سخريته ، ولأن مصريته من العمق بحيث يمكنه أن يجد فى أقسى صور الشقاء أسبابا للضحك ، فإن يومياته هذه يمكن أن تعتبر من الأدب الفكاهى الممتاز ... إنها تذكرنا بأعمال « تشيكوف » و « جوجول » . تحقيقاته الجنائية من قرية إلى قرية هى مزيج من النكتة

وتقطيب الوجه ... وأحيانا ضربات العصا ... روح الفكاهة طبع أصيل ... والتعليق اللاذع أسرع من رد الطرف !

فى أغوار شقائهم يبدأ أولئك الناس البسطاء بالضحك من معذبيهم ... وقبل أن يتناولوا الحبل الذى سيشنقونهم به ! . فإذا ضحكنا معهم ، ومع المؤلف ... وطوينا الكتاب ... فإننا نأخذ نستشعر شحنة الغضب والرفض التى ضمنها النائب توفيق وثيقته !

الكتاب مؤلم ... بما يذكره صراحة وما يترك لك أن تفهمه ... كذلك المقدمة القصيرة التى كتبها المؤلف لهذه الطبعة الأخيرة « وهو قد كتبه عام ١٩٤٠ » وحيث يقول إن شيئا لم يتغير بعد لدرجة تذكر فى ذلك العالم الغارق فى الوحل ... حتى الاختناق ! . والكتاب هام جدا لأن الكثير فى مصر ، وعن الحقيقة ، تجسده فى تلك اليوميات الحية أكثر كثيرا مما يمكن أن تجده فى كتب سياسية تصدر غن ذلك الشعب الفريد فى وادى النيل ... والذى يبدأ عادة بالضحك من مصائبه لكنه فى النهاية يجد الوسيلة التى يسترد بها الحياة !

مقتطفات من النقد الإنجليزى :

« ... يعتبر « توفيق الحكيم » أكبر الروائيين المصريين الأحياء . و « يوميات نائب فى الأرياف » هو أول كتبه التى نقلت ونشرت فى اللغة الإنجليزية . ما أعجب وأصدق كل هذا الذى فى الكتاب ! ...

« إنها المهزلة الخالدة التى تصور فساد الأداة الحكومية وعجز النظم الإدارية عن تحقيق العدالة بين جموع الفلاحين . إن تصوير توفيق الحكيم لرجال الإدارة وانشغالهم بالحملة الانتخابية عن واجبهم لينطوى على أكثر

من مجرد الاستنكار ... وإن فى تصويره للعبث بالجثث لأكثر من مجرد الاحتجاج . وكما حدث فى القرن التاسع عشر مع الكتّاب الروس ، وكما حدث مع كاتبنا الإنجليزى « ديكنز » يشعر الأديب مرهف الحس وسط الاضطراب وفى أجواء الظلم أن الشفقة على المظلومين لا تكفى ، وأن الغضب على الظالمين لا يجدى ، فيتخذ من السخرية اللاذعة سلاحا لتحقيق ما يهدف إليه من التنبيه والتحذير والإصلاح . وقد كان توفيق الحكيم فى هذه الناحية رائعا ، فقد زخر كتابه بالسخرية اللاذعة ولكنها سخرية اتخذ منها سلاحا للهجوم ... »

(ب . هـ . نيوباى)

مجلة « ذى لسنر » ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧

« ... « يوميات نائب فى الأرياف » ترينا الفقر والظلم فى الريف المصرى وما يلقاه أبناؤه من عنت وعسف من جانب الإدارة بسبب تطبيق نظم لم تراع عند وضعها أحوالهم وظروفهم ، صيغت فى قالب ذكريات موظف حكومى مصرى يعمل فى سلك القضاء . إن المرارة والسخرية التى رسم بهما توفيق الحكيم هذه الصور لا يمكن أن تنسى » .

(د . س . سافاج)

مجلة « سبكتاتور » ١٨ يوليو سنة ١٩٤٧

مقتطفات من النقد الفرنسى :

« ... هو ديكنز وادى النيل ... بل هو « كورتلين » أيضا . لأن روح الفكاهة فى تصوير مجالس القضاء تجدها عنده كثيرة بطرق منوعة ... فالكتاب ملىء بالصور المرسومة بريشة السخرية ، والمأساة فيه رابضة

فى جو مفعم بالأسرار . على أن الأشخاص الشعبيين ومن يعيش فى محيطهم من آدميين هم الذين عنى المؤلف بخلقهم خلقا نابضا مؤثرا ... إن « كورتلين » المصرى ، وهو — والحق يقال — أعمق شاعرية من كاتبنا الفرنسى ، يثور لهذه الفوضى التى نتجت فى الريف المصرى ، وإن توفيق الحكيم قد استخرج من كل ذلك الحجج التى تحتم الإصلاح .

« وهذه ليست كل صفات هذا الكاتب الذى يعتبر مثلا لأدب مصر المعاصرة » .

(أندريه روسو)

« فرنسس ستراسيون » ٢٩ أبريل سنة ١٩٥٠

* * *

« ... إنها صورة حية ، ساخرة ، قاسية أحيانا لدنيا الريف المصرى ... وإن هذه الدنيا لتتحرك فى صفحات هذا الكتاب فى حيوية مدهشة تجعل القارئ ينسى أحيانا المقاصد الإصلاحية التى حركت توفيق الحكيم ... فإن الذى يعلق بذاكرة القارئ هو قوة السرد والخلق والإبراز والصدق ودقة الملاحظة والقدرة فى إدارة القصة ، على أن توفيق الحكيم إنما يكتب ليحتج وينقد ويتهم » .

(رمون فرنانديز)

جريدة « ماريان » ٩ أغسطس سنة ١٩٣٩

رقم الإيداع : ٨٨/١٩٢٨
الترقيم الدولى : ٨ — ٠٣٥٩ — ١١ — ٩٧٧



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه